الفصـــــل الثانى

من الطولونيين إلى الأيوبيين

شاعر خمارويـــــه [1]

قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب : «حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة» : "رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون" .

فـإذا كان هذا القول قد أثرت فيه عوامل الإغراء، وشابته أسباب الهوى والمـبالغة ، فإنـه ـ بالرغم من ذلك ـ لا يفقد دلالته على كثرة الشعراء الذين عرفوا بنظم الشعر فى العصر الطولونى.

ولكننا حين نبحث عن هؤلاء الشعراء لا نصل إلى أسماء غير مجموعة قليلة منهم لا تملأ كراسة واحدة، بل ربما لم تملأ أكثر من صفحة واحدة.

فـإذا أردنا أن نتعمق قليلا، ونتعرف ما وراء هذه الأسماء، تساقط الواحد منها بعد الآخر، ولم يمثُل أمامنا غير عدد ضئيل منها، ربما لم يزد على أصابع اليدين.

ومـا نصل إليه من أخبار هذا العدد الضئيل وأشعاره يمائله ضآلة ، بحيث يتعذر علينا أن نحسن تصورهم أى تصور.

وذلك هو سبب جد الباحثين فى الأدب المصرى فى التنقيب، واحتفالهم فى البحث، وفرحتهم الغامرة بالنص يعثرون عليه مهما كان قصيرا أو مبتـــــورا

---

[1] نشر فى مجلة المجلة ـ أكتوبر ١٩٦٨م .

أو مشـــوها. فشأنه شأن النقوش الفرعونية، لا نبخل على التنقيب عنها بجهد ولا مـــال، ونمنحها الترحيب حين نعثر على شيء منها مهما كان، لأنه سيعطى الصورة القديمة شيئا من النماء والتمام.

هـــذا التصور هو الذى يدفعنى إلى الكتابة عن هذا الشاعر، الذى أريد أن أكتب عنه. فلن أعطى صورة تامة ولا واضحة له، ولن أحاول ذلك، فلست قادرا عـــليه بمـــا بـــين يـــدى من مواد. وإنما أكتب لعثورى على بعض "النقوش" أعنى "القصـــائد" ، أضـــعها أمام الدارسين مقرونة بتفسيرى لها ولما كنا نعرفه من شعره الذى درسه سابقون علىّ .

هـــذا الشاعر منحنا كتاب «المغرب فى حلى المغرب» [1] ، أتم صور اسمه، فكـــانت القاســـم بن يحيى بن معاوية المريمى. ولا يختلف الاسم فى بقية الكتب التى ذكرته.

وضبط لقب الرجل فى أكثر الكتب التى ذكرته بفتح الميم وسكون الراء. غير زهر الآداب[2] ، فقد ضبطه السيد على محمد البجاوى محققه بكسر الراء. وقد أردت الـــتحقق مـــن الضـــبط، وإلام ينسب الرجل، فلم أجد أحدا ممن كتب فى الأنســـاب والألقاب مثل السمعانى وابن الأثير والسيوطى تعرض له، ولم يبق أمامى غـــير الـــتخمين. وعندما حاولت ذلك وصلت إلى أن المرجح فى الضبط هو كسر الراء، وإلى احتمالين فى تفسير اللقب:

---

(١) القسم الخاص بمصر من : ١ : ٢٧١ .

(٢) ١ : ٤٥٤ .

١ - أن يكـــون منسوباً إلى مريمة [١] ، وهى من قرى حضرموت. وترجح هذا الاحـــتمال كثرة اليمنيين والحضارمة الذين نزلوا مصر مع الفتح الإسلامى وبعده، وبروز رجالهم فى الحياة المصرية فى تلك العهود.

٢ - أن يكـــون منسوبا إلى مريمين[٢] ، من قرى حمص أو حلب، كما ينسب إلى نصيبين فيقال نصيبى[٣] .

ولم أجـــد نصا يقطع بكون الرجل مصريا منذ مولده إلى وفاته. ويبدو أن الـــبحث عن مثل هذا الأمر لا طائل من ورائه. فلم يكن أهل ذلك العصر يفرقون بين الأقطار العربية خاصة والإسلامية عامة، بل كانوا يطلقون لقب المصرى وغيره من ألقاب البلدان على من أقام بمصر مدة، وعرف فيها، أين كان مولده ومنشؤه. ولذلك لا أستطيع ادعاء مصريته الشاملة اعتمادا على وصف كتاب المغرب[٤] إياه بـــ "الشاعر المريمى المصرى " أو " من شعراء مصر المشهورين " .

وقـــد عثرت فى بعض شعر الرجل على أقوال تميل بى إلى القول بأنه شامى الأصل. فقد خرج لخمارويه فى سنة ٢٧٣ هـــ، من مصر إلى الشام والجزيرة لمحاربة بعض خصومه، فقال المريمى يشيد بانتصاره عليهم [٥] :

أتا نا أبو الجيش الأمير بيمنـــــه ... فشرد عنا الجور، وافتقر العســـــر

فإن تك أرض الرقتين به اكتست ... ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصـــر

فقوله : "أتانا " يدل على أنه لم يخرج مع خمارويه من مصر، وأنه كان بالشام.

---

(١) القاموس المحيط وتاج العروس : ريم .

(٢) معجم البلدان لياقوت : ٤ : ٥١٦ .

(٣) نفس المرجع : ٤ : ٧٨٧ .

(٤) نفس المرجع : ١ : ١٣٦ ، ٢٧١ .

(٥) ولاة مصر للكندى : ٢٦٠ .

كذلك أعلن فى شعر آخر أن الناس يعجبون لطول مقامه بمصر، ويسألونه عن السبب ، قال[1] :

يقولون لى : مابال رحلك دائما بمصر، وأنى لست عن غيرها أرضى؟
وكيف رحيلى عن بلاد غدا بها أبو الجيش والنيل الذى ملأ الأرضا؟!

فهـذا التسـاؤل من الناس إما أنه يدل على أن الرجل غريب عن مصر، فعجبوا منه إذ أطال المقام فيها أو أنه وصل من الفن الشعرى إلى مرتبة عاليه تجعله جديـرا أن ينتقل من مصر إلى عاصمة الخلافة العربية بغداد، فكان مقامه فى مصر مثيرا للعجب.

أمـا أنا فتميل بى هذه المعلومات القليلة إلى أن الشاعر من مريمين الشامية، وأنه أتصل بخمارويه عند ذهابه إلى الشام كما اتصل به شاعر مشهور آخر بل ربما أشهر شعراء العربية فى عصره أعنى البحترى، ثم انتقل مع خمارويه إلى مصر، وبقى فيها ، وصار شاعرها الرسمى، فوصف بالشاعر المصرى، مع احتفاظه بلقبه المريمى.

ونسـتبين مـن النصوص التى رواها الكندى أن المريمى التزم بخمارويه فى الشام، وتتبع خطاه، وأهداه القصائد التى تتغنى بانتصاراته. قال يصف ما كان بينه وبين إسحاق بن كنداج فى سنة ٢٧٢هـ، وبدأ بتصوير عظمة جيش خمارويه[2] :

فسائل به إسحاق، إذ سار نحوه بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
تباعدت الأقطار منه كنافـة ففى مشرق قطر وفى مغرب قطر

وصور ما اعترى ابن كنداج من حيرة، وتملكه من فزع، وتيقنه من الهزيمة، مما أرغمه على الفرار محافظة على النفس بعد أن تقوض جمعه، وزال فرحه :

---

(1) المغرب : ١ : ١٣٦ .

(2) ولاة مصر : ٢٦٠ .

فأبلس إذ قيل: الأمير ببالـــس[1] وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبـلا أرته المنايا الحمر أعلامه الحمـــر
فولى شريدا ذا ارتياع كأنـه بكل بلاد طائر ما له وكـــــر
لئن سر إسحاق النجاة بنفســـه لقد ساءه فى جمعه القتل والأســـر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هـــذه فقـــد كسرته كسرة مالها جبر

ولعـل أحسن ما قال المريمى من شعر كان فى معارك خمارويه بالشام. فقد الـتف حـول الأمـير جماعة من الشعراء يتغنون بشجاعته، وما أبداه من ضروب الحنكة، ومالقيه من صنوف النصر. وكان منهم الشعراء الكبار، من أمثال البحترى الذى قال فى مدح خمارويه [2]:

وقد رأيت جيوش النصر منزلة على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية، إذ ثنى بكرتـــه فى النقع خمسين ألفا أو يزيدونـا
مظفر، لم يزل يلقى بطلعتـــه كواكب السعد والطير الميامينـا

وأثـار هـذا الاجـتماع نفوس الشعراء، وأشعل الميل إلى التبارى بينهم، ودفعهـم إلى إفراغ الجهد وسلوك كل طريق للتفوق. نجد مظاهر ذلك فى قصيدة المـريمى الـتى قالها فيما كـان بين خمارويه ومحمد بن ديوداد من معارك فى سنة ٢٧٤هـ، انـتهت كسابقتها بانتصار خمارويه وفرار خصمه، وهى المعارك التى ألهمت البحترى قوله الذى أوردت أبياتا منه ، قال المريمى [3] :

---

(١) بالس : بلدة بين حلب والرقة .
(٢) ولاة مصر : ٢٦٣ .
(٣) ولاة مصر : ٢٦٢ .

فتوح الأمير نجوم تلوح فليست تقاس إليهـا فتوح
تسير لها فى جميع البلاد ركائب تغدو بها وتـروح
إذا حاد عن أمره حائد أتاح له الحتف منه متيـح

وقال فيها يصف ابن ديوداد ، وما ارتكبه من غدر، وما منى به من هزيمة، كما فعل مع ابن كنداج قبله :

نصحنا لشـر بنى دودد بتحذيره لو أطيع النصيـح
ولم يكن الغـدر مستقبحا وفى الغدر شين وعار قبيـح
تعاطى نطاح كباش الحروب فغودر وهو صريع نطيـح
لئن كان ولى سليما صحيحا فما القلب منه سليم صحيح

وختم بمدح خمارويه ، ووصف خلقه وعزمه :

أباح حماه فتى لم يـزل يحوط حمى ، وحمى يستبيـح
إذا هو لم يسترح من عدو فليس على لذة يستريـح
وإن همَّ بالسير لم يثنـه سنيح يعـن له أو بريح [1]

وأخذ الطولونيون أنفسهم ومن يتصلون بهم بتقاليد معينة، نقلوا كثيرا منها مـن التقاليد العباسية فى بغداد. فقد جعلوا من الأعياد وبعض المناسبات مواسم للاحـتفال وإشاعة السرور. وألفوا فيها أن يتبادلوا الهدايا: على اختلاف أصنافها، وعـلى اختلاف مراتبهم. فلا فرق بين كبير وصغير فى تقديم ما شاء واستطاع من هدايا واجب تقبلها.

فكان الأمير يهدى من حوله الدنانير الحديثة الضرب كما يفعل كثيرون فى هذه الأيام إذ يحب أن تكون " عيديته" من الأوراق الجديدة التى لم تستعمل بعد.

---

[1] أى لم يثنه طير يدل على التشاؤم أو التفاؤل .

وهكذا يقال [1] : أهدى بعض بنى طولون إلى المريمى فى يوم عيد هدية فيها دنانير جدد من ضرب السنة، فكتب إليه المريمى شعرا طويلا، يقول فيه :

لم ترض نيلا جاء يسبق موعـــدا ... حتى وصلت النيل منك بموعـد
ورأيت فى برد اللسان ــ وإن حلا ــ ... مذقا إذا لم تبله بر اليـــد
فحبوتنى بعيون وشى مونـــق ... معه حباء من عيون العســجد
من كل ذى وجهين لم يقنع لـــه ... فى الحسن صانعه بوجه مفـرد
واشتق من لونين مشرق لونـــه ... من أصفر فى أحمر متوقـــد
لا روح فيه، ومالذى روح غـنى ... عنه ولا صبر إذا لم يوجـــد
مولى لمكرمة، وعبد مهيبـــة ... وترى له الأحرار مثل الأعبـد

وكـان الشعراء يهدون الأمراء مدائحهم . ولكن بعضهم ــ ممن اشتدت صلته بالأمير وقرب إلى نفسه ــ كان يقرنها بهدايا أخرى نفيسة. فقد أهدى المريمى إلى خمارويه فى يوم عيد مرآة، وكتب معها [2]:

ولما أتى عيد عليك مبـــارك ... تقابـل فيه طالع السعد لا النحس
ولم أرض مدحى وحـده لك تحفة ... وإن كـان وشيا لا يدنس باللبس
بأحسن مرآة لأحسن طلعـــة ... رأيت لها فضلا على البدر والشمس
بعثت بأخت البدر والشمس، والتى ... غدت طينة للمجد فى صورة الأنس
مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى ... ومنطقة فى وصفها ألسن الخـرس
بحيرة نور موجُها متدافـــع ... وليس لها غير التألف من حـــس
لها نور إفرند ورونق جوهـــر ... يكدره أدنى التنفس واللمـــس
صفت، واستوت بالماء والنار واكتست ... من اللين ثوبا وهى كامنة اليبـس

---

(1) التحف والهدايا للخالديين ٦٤ .

(2) التحف والهدايا : ٢٠ .

أتتك محلاة تزف كأنهـــــــا عروس توافى بعلها ليلة العـــرس
ولم أهدها إلا ونفسى تحبهـــــا ولكن نفسى آثرتك على نفســى

وعــثرت عــلى نصــين للمريمى من الإخوانيات، أى الشعر الذى يتبادله الأصــدقاء فيما يكون بينهم من أمور، وكان المريمى فى النصين محتاجا إلى شىء ما، فاخــتار صديقا له بعث إليه أبياتا يكشف فيها عن حاجته، ويلتمس منه أن يبعثها إليه. كتب إلى صديق كان يشرب معه النبيذ ثم أقلع عنه[1] :

إن كنت تبت عن الصهباء تشــربها نسكا، فما تبتَ عن بر وإحسان
تب راشدا، واسقنا منها، وإن عذلوا فيما فعلت فقل: ما تاب إخوانى

ويكشــف الــرجل فى هذين البيتين عن روح عذبة ، نفتقدها فى الأبيات الســابقة. ولكنها تتجلى ثانية فى قصيدته التى استهدى فيها تكة من ابن عبد كان، وبدأها بقوله [2] :

يا سيدى ومؤملـــــــــى إن خفتُ من عنت الليالـــــــى
أشكو إليك مصيبـــــــتى فى تكة كانت جمالـــــــى
لعب البلى بجديدهـــــا فكأنها دمـــن بوالـــــى
ولديك منها عـــــــدة نخب من التكك الغوالـــــى

ويمكــن أن نقــرن بهذين النصين الأبيات التى استهدى فيــها من حمارويه خيمة [3]، ويبدو أنها تدل على تطور العلاقة بين الرجلين وبلوغها مبلغ الصــداقة أو مايقاربها.

---

(1) زهر الآداب للحصرى : ١ : ٤٥٤ .
(2) التحف والهدايا : ٨٢ .
(3) التحف والهدايا : ٩٤ ، والمغرب.

وعـــندما نمعن النظر فى جميع النصوص التى تحدث فيها المريمى عن الهدايا: طلـــبا وعطـــاء ، نجدهـــا تسير على نمط واحد، إذ يعتمد فيها على أمرين: المدح والوصـــف. أمـــا المدح فيوجهه للمُهدى، وأما الوصف فخاص بالهدية، يحاول أن يعطى صورة شاملة جذابة لها. ولكن هذه الظاهرة لا تقتصر على المريمى وحده، بل تكاد تعم شعر الهدايا كله، كما يبين من كتاب التحف والهدايا.

ولكن مؤلفى الكتاب المذكور فطنا إلى ظاهرة أخرى اشترك فيها المريمى مع جماعـــة من الشعراء، كان رائدهم البحترى. فقد عمد هذا الشاعر إلى سد السبل جميعا أمام اعتذار من يطلب منه الهدية، وكشف له عن رضاه بجميع الأصناف منها، وأطـــنب فى وصـــف صنف صنف منها. فتبعه فى ذلك بعض الشعراء الذين كان المريمى واحدا منهم.

قال الخالديان [1]: استهدى البحترى من أبى جعفر بن عبد الحميد فرسا وبغلا :

فاعن على غزو العدو بمنطـــــو ... أحشاؤه طى الكتاب المـــــدرج
إما بأشقر ساطع أغشى الوغـــى ... منه بمثل الكوكب المتأجـــــج
متسربل شية طلت أعطافـــــه ... بدم فما تلقاه غير مضـــــرج
أو أدهم صاف السواد كأنـــــه ... تحت الكمى مظـــهر بيرنـــدج[2]
ضرم يهيج السوط من شؤبوبـــه ... هيج الجنائب من حريق العرفـــج
أو أشهب يقـــق يضىء وراءه ... متن كمتن اللجة المترجـــــرج
تخفى الحجول ولو بلغن لبانـــه ... فى أبيض متألق كالدملـــــج
أو أبلق يلقى العيون إذا بـــدا ... من كل لون معجب بنمـــوذج

---

(1) التحف والهدايا : ٧٨ ــ ٨٣ .

(2) اليرنـــدج : السواد يسود به الخف ، وشؤبوب : شدة العدو ، العرفج : نبات طيب الرائحة ، اللبان : الصدر ، الدملج : السوار ، العنف : ضرب من السير سريع فسيح .

جذلان تحسده الجياد إذا مشـــى عنقا بأحسن حلة لم تنســـــج

فالبحترى راض بالأشقر أو الأدهم أو الأشهم أو الأبلق، واصف لهما بأحسن الصفات . وقد حذا الصنوبرى حذو البحترى فى هذه المعانى فقال يستهدى نعلا :

متى تتدارك نعلـــــــــى ألا فقد ذهبت أو بدت تذهـــــب

بسوداء ذات بريق تـــــــراه كالآل من فوقهـــــــا يلعب

وإلا فصفراء كالشمس حيـــــ ـــن يجللها ثوبها المذهـــــب

وإلا فبلقاء قد وشحـــــــت بنقش كما وشح المشجـــــــب

وإلا فدكناء عرسيـــــــــة يشاكلها العنبر الأشهـــــــب

وإلا فحمراء لون الشقيـــــق إن كان هذا فذا أغـــــــرب

وإلا فصهباء ما إن يـــــزال ينافسها السوسن الأصهـــــب

ولو كنت أعرف خضراء قلـــت كالماء دبجـــه الطحلـــــب

وعلى البحترى ومعانيه عول المريمى فى استهدائه التكة من ابن عبد كان :

فابعث باحداهن لـــــــى حمراء مثل دم الغـــــــزال

أوجد بها صفراء مثـــــــ ـــل الشمس فى وقت الـــزوال

أولا فبيضـــاء القميـــــ ـــص كأنما رقـــراق آل

ومتى بعثت بها مـــــورًّ دة لعبدك لا يبـــــالى

والخضر لـــون أشتهيـــــ ـــه وأرتضيه بكل حـــال

ولئن أتت حمريـــــــة فقد اعتقدت بهـــا وصالـــى

أو فلتكن زرقـــــاء تشبـــ ـــبه زرقة المـــاء الـــزلال

وتجنب الســـــوداء فهـــى تعد فى الســـــقط الرذال

والعيش فى منقوشـــــة كأكف ربـــات الحجـــال

هبها وخذ حظـــى بهـــا ألا تحـــل على حـــــلال

والخالديان محقان فيما تنبها إليه ، غير أنى أحب أن أغير عبارتهما بعض الشيء فأستعيض عن قولهما " معانيه " بـ " نهجه" . فالمريمى لم يعول على أى معنى من معانى البحترى، ولم يلتق به فى أية صفة أو فكرة أعلنها. وإنما الالتقاء بين الشعراء الثلاثة فى الاتجاه الذهنى، والمسلك التعبيرى الذى التزموه. ونتبين من القصائد الثلاثة أن البحترى أعظمهم إلحاحا على الوصف ، وتتبعا له، فلم يقتصر على إعطاء كل صنف بيتا واحدا بل أعطى الأبيات، على حين لم يفعل ذلك محتذياه، فيما يبدو. ونتبين أيضا أن البحترى أجزلهم، بينما يتمتع الآخران بقدر أكثر من خفة الظل .

وإذا أمكن لنا أن نعتذر عن الشاعر فى اتباعه نهجا واحدا فى الشعر الإخوانى فما أظننى قادرا أن أفعل ذلك فى شعره الحربى. فالناظر فى قصيدتيه اللتين أشاد فيهما بانتصارات حمارويه يلاحظ الظاهرة نفسها تتكرر فيهما. ولا شك أن ذلك يدل على ضيق باع الرجل، مهما تماثلت الأحداث فى الحروب.

ونلمح فى بعض شعر المريمى آثارا لثقافة كان الرجل على معرفة بها، وأعنى بذلك الثقافة العربية المتصلة بالتراث الشعرى، فالصلة قريبة بين الشطر الأول من قوله :

وإن هم بالسير لم يثنه سنيح يعن له أو بريح

والشطر الأول من قول كثير [1] :

إذا ما أراد الغزو لم تثن عزمه حصان عليها نظم در يزينها

والشطر الثانى وليد ما كان شائعا بين العرب القدماء من التطير والتفاؤل بالطير.

---

(1) ديوانه : ٢ : ٣٢

ونـــلمح فى شـــعره آثارا للصنعة الشعرية التى شاعت بين شعراء عصره. فقد اعتمد على لون ساذج من الجناس ــ ولكنه عذب ــ فى بيته الذى وصف فيه أرقه وعذابه[1] :

سهاد ــ حين يسرى الطيف ــ يسرى ودمع ــ حين يجرى الذكر ــ يجرى

واشـــتق من اسم البلدة التى وقعت فيها المعركة بين حمارويه وابن كنداج فعلا يتجانس معه، كما فعل فى عقد الجسر أيضا ، فقال :

فأبلس إذ قيل : الأمير ببالـــــس وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر

ولكـــنه ــ يبدو ــ كان أكثر ولوعا بالطباق والمقابلة. نلاحظ ذلك فى البيت الســـابق، وبين المشرق والمغرب من القصيدة نفسها، وبين الشطرين الأول والثانى من قولـــــــــــه:

لئن سر إسحاق النجاة بنفسه لقد ساءه فى جمعه القتل والاســـر

وقولـــــــــه :

لئن كان ولى سليما صحيحا فما القلب منه سليم صحيـــــح

وفى قولـــــه : "يحوط حمى، وحمى يستبيح" ، وفى كثير من ألفاظ سينيته.

وليس هذا بالأمر الغريب، فقد كان شعراء القرن الرابع يحبون هذه الزخرفة، منذ أولع بها أبو تمام.وكان المريمى يرى فى شعره "وشيا جديرا بألا يبتذل"، وقال:

ولم أرض مدحى وحده لك تحفـــــة وإن كان وشيا لا يدنس باللبس

ويبدو أن المريمى وصل إلى مرتبة غير منخفضة فى الفن الشعرى، والصنعة، مما يجعل الناس يحافظون على قصائده ويسجلونها، وكتاب المغرب يصفه بالشهرة كلما تعرض له ، قال عنه[2] : " من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم" .

---

(1) المختار من شعر بشار للخالدين : ٢٧٠ .

(2) ١ : ٢٧١.

وقـد أعجب الثعالبى ببيت له فى وصف الرسائل البليغة، قال[1] : "أحسن ما سمعته فى ذلك قول المريمى هذا :

يطوى ، وليس بمطوى محاسنه فالحسن ينشره والكبر يطويه "

وإن كان فضل عليه بيتين لشاعر آخر غير ذى شهرة، قال: "وأحسن منه قول ابن مندويه الأصفهانى :

يكرر طورا من قراه فصوله فان نحن أتممنا قراءته عدنا

إذا ما نشرناه فكالمسك نشره ونطويه، لا طى السآمة بل ضنا "

وختام القول فى القاسم بن يحيى المريمى إنه الشاعر المصرى، الذى أكثر خمارويه الإحسان له، فاختص به، وأشاد بانتصاراته، وشارك فى حياة المجتمع المصرى.

وبارى الشعراء الذين اتصلوا بأميره، مهما سمت مرتبتهم. واطلع على التراث القديم والحديث. فاحتذى آخر ما ابتكره الشعراء من مسالك شعرية، واغترف من التراث العربى، وتأثر بالطبيعة المصرية، وصور بعض مشاهدها واستلهمها كما فعل مع النيل. وطال نفَسه فطالت قصائده حتى فى بعض القصائد التى لا تستحق الإطالة عادة.

فلا جرم أن يكون أهلا بلقب " شاعر خمارويه " .

ولكن شاعر خمارويه عاش طويلا بعد أميره، فيما يبدو. فقد كتب بعض المعلقين فى حواشى مخطوط ولاة مصر أن المسبحى ــ المؤرخ المصرى ــ ذكر أن المريمى توفى فى سنة ٣١٦ هـ . وكان مقتل خمارويه فى سنة ٢٨٢ هـ . فماذا فعل الشاعر أو قال طوال هذه المدة ؟ .

---

[1] من غاب عنه المطرب (التحفة البهية) : ٢٣٤ .

إنه سؤال سيبقى بقاء السؤال عما كان الشاعر يفعل قبل الاتصال بخمارويه، إلى أن تقذف لنا بطون الكتب بمعلومات جديدة نضيفها إلى ما عندنا، وتزيح بعض مـــا يغطـــى جوانب حياته من ظلام، وتصعد به إلى ما تمتع به فى حياته من الضياء والبروز والشهرة.

المراجـــــع

١ – الثعالبى : من غاب عنه المطرب.

٢ – الحصرى : زهر الآداب ــ دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٧٢هـــ/ ١٩٥٣ م.

٣ – الخالديان : التحف والهدايا ــ دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م.

: المختار من شعر بشـــــار .

٤ – الزبيدى : تاج العروس .

٥ – بنو سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب .

٦ – الفـــيروز ىبـــآدى ــ القـــاموس المحيط ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٧١هـــ/ ١٩٥٢م.

٧ – كثير : ديوانه ــ طبع الجزائر ١٩٢٨ م .

٨ ــ الكندى : ولاة مصر ــ دارا صادر وبيروت ١٣٧٩هـــ/ ١٩٥٩م.

٩ – محمـــد كـــامل حسين : أدبنا العربى فى عصر الولاة ــ دار الفكر العربى ١٣٨٠هـــ/ ١٩٦١م .

١٠ – المقريـــــزى : الخطط .

١١– ياقـــــــوت : معجم البلدان ــ طبع ليبســـــــك .

*****

«شاعر الحكمة» [1]

هذا رجل اتفق الذين كتبوا عنه أو ذكروه من القدماء على نعته بالمصرى، واتفق الذين كتبوا عن الأدب العربى فى مصر على إهماله.

وهو رجل غريب اجتمعت فيه مجموعة من المتناقضات، لا نستطيع ــ على ضــوء ما عندنا من معلومات قليلة عنه ــ أن نجلوها ، أو نعللها، أو نؤرخ لها، أو نرفضــها، فنــبرز من هذا الظلام صورة واضحة القسمات، جلية المعالم، لا تختلط بغيرها ولا يشوبها شيء من الغموض يخفى بعض جوانبها.

ولكــن هدفنا أن نفوز بصورة ما، صورة قد أزالت بعض ما تراكم عليها من غبار الزمن، وتخففت مــــن بعض ما يلفها من حجب الغموض، فشفّت عن "رجل" فى تاريخ الأدب المصرى.

هذا الرجل الذى أستهدفه هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل.

اتفــق كــل من كتب عنه على ذلك. ثم زادوا فى النسب أشياء وقع فيها شــيء مــن خــلاف. فقد ذكر أكثرهم بعد إسماعيل : ابن عمر التميمى ، غير الحصــرى الــذى جعله: ابن عيسى بن عمر التيمى. ولعل إهمال الأكثرين لعيسى للاختصــار لا لشيء غيره. أما التيمى فمحرفة عن التميمى التى يكاد يقع الإجماع عليها. والدليل على ذلك قوله لابنه معاتبا وناصحا وموجها [2]:

يا من له تميـــــــم ... عم نبيل وخــــــال

إن لم يكن لك تقــــوى ... ولم يكن لك مــــــال

---

(١) نشر فى مجلة المجلة ــ فبراير ــ ١٩٦٩ م.

(٢) معجم الشعراء : ٢٨٠ .

فاجلس فأنت ذليـــــــل بحيث تُلقَـى النعـــــال

واتفق الكتاب أيضا على أنه من مواليد رأس العين، التى أعلن أكثرهم أنها مـــن مـــدن الجزيرة ، أعلن ابن هداية الله الحسينى [1] أنها من نواحى حلب. وشذ صاحب شذرات الذهب فأعلن [2] : " أصله من رأس عين ، بلدة بالجيزة" . ولكن ذلـــك خطأ، وأعتقد أنها تحريف. فلست أعرف بين قرى الجيزة ما يطلق عليه هذا الاســـم، على حين يعرف المتصلون بالثقافة العربية رأس العين من مدن جزيرة ابن عمر، وهى الآن الحسكة على نهر الخابور فى شمال سورية .

ولسنا نعرف شيئا عن مقامه بعد مولده. ولعله بقى فى مسقط رأسه إلى أن دخـــل فى سن الشباب الطموح. ورأى أن بلدته الصغيرة لا تعطيه ما يرضيه، ولا تـــتيح لأطماعـــه مـــا يحققهـــا، فنزح إلى بغداد. وكان المتولى أمورها وأمور العالم الإســـلامى الخـــليفة المعتز بالله الذى تقلد الخلافة من ٢٥٢ هـــ إلى ٢٥٥هـــ . فحـــاول الرجل أن يتصل به، ويكون من شعرائه، وقدم بين يديه مدحته التى قال فيها[3] :

ما واحد من واحـــــــــــد أولى بمجـــــد أو مـــــــروه
ممن أبوه وجـــــــــــــده بين الخلافـــــة والنبـــــــوه

ولكـــن بغداد نبت بالرجل، إما لخلع الخليفة وإعراض من بعده عنه، وإما لأنـــه لم يجـــد له مكانا بين شعراء العاصمة. فاتجه إلى الغرب. ويبدو أنه دأب على

---

(١) طبقات الشافعية : ١٢ .

(٢) شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩

(٣) المغرب : ١ : ٢٦٢ .

سيره إلى أن بلغ الرملة من مدن فلسطين، فطاب له أن يقيم بها، ففعل. ولذلك قال ابن الجوزى[1] : " سكن الرملة " ، وجاءت عبارة ابن خلكان[2] المبهمة التى نقلها عن كتاب خطط مصر لأبى عبد الله القضاعى : " أصله من رأس عين والرملة" .

ولم تكـــن الرملة أفضل من بلدته، أو التى ترضى فيه مالم ترضه رأس العين. فكان محتما أن يجرب الرجل حظه فى أكبر مدينة مجاورة: الفسطاط، فكانت هجرته إلى مصر، التى استقر بها إلى أن انتهت حياته. فمتى كانت هجرته إلى الرملة، وكم بقى فيها، ومتى نزح منها إلى مصر؟ هذه أسئلة لا تعطينا المواد القليلة الباقية جوابا شـــافيا عليها، ولكننا قد نصل إلى تواريخ تقريبية لها. فلا شك أنه كان فى مصر فى ســـنة ٢٩٣هـــ، فقد روى ابن حجر[3] : "قال أبو بكـــــر بن الحداد : دخل القاضـــى أبو عبيد مصر فما أعجبنى منظره. فبينا نحن عند أبى القاسم بشر بن نصر الفقيـــه غلام عوف، إذ دخل منصور بن إسماعيل الفقيه فقال: كنت عند القاضى. فقـــلت له : كيف رأيت؟ قال : يا أبا بكر، رأيت رجلا عالما بالقرآن، والحديث، والاخـــتلاف، ووجوه المناظرة، عالما باللغة والعربية، عاقلا ، ورعا متمكنا. قال : قـــلت له : هـــذا يحيى بن أكثم. قال : قلت الذى عندى فيه . قال ابن الحداد: ثم دخلت على أبى عبيد بعد ذلك وخالطته، فإذا منصور قد قصر فى صفته" .

فـــرواية الخبر تدل على وقوعه بعد مجىء القاضى أبى عبيد على بن الحسين ابـــن حرب المشهور بحربويه بوقت قصير. وكان دخول هذا القاضى إلى مصر يوم السبت لأربع خلون من شعبان سنة ٢٩٣ هـــ [4].

---

(١) المنتظم : ٦ : ١٥٢ . السيوطى : حسن المحاضرة : ١ : ٢٢٥ .

(٢) الوفيات : ٢ : ١٦٣ .

(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر : ٢ : ٣٩٤ .

(٤) الكندى : قضاة مصر ٤٨١ .

أمـــا وفاتـــه فقـــد وقع فيها خلاف صغير. فقد أعلن الشيخ أبو إسحاق الشـــيرازى فى الطبقات[1] " أنه مات قبل العشرين وثلاثمائة" ، وخلص بذلك من مأزق التحديد. ولكن غيره ذكر سنة بعينها، فانفرد "المغرب" [2] بأنها سنة ٣٠٤ هـــ، واتفق كثيرون غيره على أنها سنة ٣٠٦هـــ.

وأقدم ما اشتغل به أبو الحسن الجندية، ثم انصرف عنها فى تاريخ لا نعرفه، ولســـبب لم يذكـــره القدماء صراحة، وربما كان ضعف بصره الذى انتهى به إلى العمى، فى زمن لا ندريه أيضا .

ثم اشـــتغل بالفقه، واتصل بتلاميذ الإمام الشافعى وتلاميذهم. أما الشافعى نفســـه فلم يلقه أبو الحسن، لأنه كان قد مات فى سنة ٢٠٤هـــ. فإذا وجدنا ابن النديم [3] يضعه بين من روى عن الشافعى، أو الصفدى يقول عنه [4] : " وهو من أصـــحاب الشـــافعى " فإنمـــا يعنيان أنه من الذين التزموا مذهبه ، واتبعوا أقواله ورووها.

وأوغـــل أبو الحسن فى طلب الفقه حتى نعته كل من ذكره بالفقيه، وأعلى ابـــن خلكان من قدره فوصفه بأنه[5] : كان فقيها جليل القدر" ، وسما به السبكى إلى مرتبة علية فجعله[6] أحد أئمة المذهب" .

---

(١) طبقات الفقهاء : ٨٨ ، ابن خلكان : الوفيات: ٢ : ١٦٣ .

(٢) ١ : ٢٦٢ .

(٣) الفهرست ٢١١ .

(٤) نكت الهميـــــان : ٢٩٧ .

(٥) الوفيـــــات : ٢ : ١٦٣ .

(٦) طبقات الشافعيـــــة .

ويبدو أن هذه الأقوال لا يشوبها كثير مغالاة ، فقد انفرد الرجل بآراء خاصة به فى المذهب الشافعى. قال ابن العماد[1] : "نقل عنه الرافعى فى الجنايات أن مستحق القصاص يجوز له استيفاؤه بغير إذن الإمام" .

ومن أجل بعض الآراء الفقهية اختلف مع واحد من أعز أصدقائه، وهو قاضى الفسطاط، وكان ذلك سببا فى قطيعة حاسمة بينهما.

ووجد أبو الحسن من نفسه القدرة على تأليف بعض الكتب التى تكشف عن آراء الإمام الشافعى فى الجوانب المختلفة من الأمور الفقهية . ذكر لنا منها المؤرخون الهداية، والواجب، والمستعمل، وكتابا رابعا سماه بعضهم[2] "المسافر" وبعضهم الآخر[3] "زاد المسافر" وهو الاسم المرجح. ثم أجملوا فقالوا : "وغيرها من الكتب" [4] . ونعت مؤرخو الفقهاء هذه الكتب بالحسن والملاحة[5] ، غير أنها كانت مختصرات[6] .

---

(1) شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(2) السبكى : طبقات الشافعية. الشيرازى : طبقات الفقهاء ٨٨ ، ابن العماد: شذرات الذهب ٢ : ٢٤٩ . الصفدى: نكت الهميان: ٢٩٧ .

(3) ابن النديم : الفهرست ٢١١ ، ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٥ .

(4) السبكى " طبقات الشافعية . الشيرازى :طبقات الفقهاء ٨٨ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩

(5) السبكى : طبقات الشافعية . الشيرازى : طبقات الفقهاء ٨٨. ابن هداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩. الصفدى: نكت الهميان : ٢٩٧ .

(6) ابن الجوزى : المنتظم : ٦ : ١٥٢ .

وقد دفعته مكانته هذه إلى أن يدافع عن الفقه أمام الذين عابوه [1] :

عـــاب التفقه قوم لا عقول لهـــم وما عليه ــ إذا عابوه ــ من ضرر
ماضر شمس الضحى، والشمس طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصـــر

وبالـــرغم من هذا الدفاع العنيف، هاجم هو نفسه الفقه حين لم يفز بطائل مـــن ورائـــه، ووجد أن فتاواه لم تعد عليه بما يقوم بمعيشته، وأن عليه أن يكدح فى سبيل اللقمة [2] . قال:

ليس هذا زمان قولك: ما الحكـــ ـــم على من يقول : أنت حـــــرام
والحقى بائنا بأهلك، أو أنـــــ ـــــت عتيق محرر يا غـــــــلام
أو متى تنكح المصابة فى العـــدْ دة عن شبهة ؟ وكيف الكـــــلام
فى حرام أصاب سن غـــــزال فتولى وللغزال بغـــــــــام؟
إنما ذا زمان كدح إلى المـــــو ت وقـــوت مبلغ ، والســـــلام

والحـــق إن أبـــا الحسن ــ فيما يبدو ــ واجه أياما صعابا فى الفسطاط، وعدم القوت حتى كاد يخرج عن صوابه. وحكى بعض من ترجم له خبرا أقـــرب إلى الـــنادرة والفكاهة، قال [3] : "أصابته فاقة فى سنة قحط، فنادى بأعلى صوته فوق داره:

الغياثَ ، الغياثَ، يا أحـــــرار نحن خلجانكم وأنتم بحـــــار
إنما تحسن المواساة فى الشـــــد دة لا حين ترخص الأســـــعار

فسمعه جيرانه ، فأصبح على بابه مئة حمل بـــُرّ" .

---

(1) الصفدى : نكت الهميان : ٢٩٧ . السبكى : طبقات الشافعية .
(2) ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٧ . السبكى : طبقات الشافعية.
(3) ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

ولم يقتصر أبو الحسن على الاشتغال بالفقه، بل وسع اهتماماته فعنى بغيره من العلوم ونال بعض المكانة فيها، فوصفه القضاعي بقوله : "كان متصرفا في كل علم ... لم يكن في زمانه مثله في مصر " .

ولسنا ندري ـ على وجه اليقين ـ العلوم التي بلغ فيها هذه المكانة. ويمكننا أن نستنتج من قول رشيد الدين الوطواط [1] : " الفقيه منصور بن إسماعيل المقرئ" أن قراءة القرآن كانت إحدى هذه العلوم. وذلك أمر غير بعيد، ولكنني أخشى أن تكون "المقرئ" محرفة عن "المصري" التي ينعت بها أبو الحسن كثيرا. يرجح ذلك الفصل بينها وبين كلمة "الفقيه" .

ونستدل من شعر أبي الحسن أنه تزوج ، ورزق بأولاد، كان منهم الابن الذي رأينا عتابه ونصيحته له آنفا. ووجه إليه عبارة منثورة من أجمل ما قال : قال ابن الجوزي [2] : " رأى منصور الفقيه ابنه يلعب ويعدو فقال له: لو علمت أن رِجْلك من قلب أبيك لرفقت بها".

وكان منهم البنات ، اللاتي شغلن قلبه، وتمتعن بعطفه، وأثرن قلقه، قال [3] :

لولا بناتي وسيداتي ... لذبت شوقا إلى الممات

لأنني في جوار قوم ... بغض قربهم حياتي

---

[1] غرر الخصائص الواضحة : ٤٦٩ .

[2] أخبار الظراف والمتماجنين : ٦١ .

[3] ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٦ . السبكي : طبقات الشافعية.

ويكشف شعره عن صلاته ببعض الرجال، الذين كان بعضهم خصوما، وبعضهم أصدقاء. فقد ذكر المرزبانى أن الناشئ الأكبر هجا منصورا ، فأجابه بقوله [1] :

إن ذكر السياق ــ أصلحك الله ــ وذكر المبيت فى اللحد وحدى
حيانى عند الحديث بما لو ذاع لم تشتغل بذمى وحمدى
فاهجنى باطلا فمالك عندى أبدا غير ما لغيرك عندى

ولما كان أبو العباس عبد الله بن محمد المكنى ابن شرشير والملقب بالناشئ الأكبر قد عاش فى بغداد والفسطاط، يمكن أن تكون هذه الخصومة بين الرجلين قد نشبت فى إحدى المدينتين . ولعل المرجح أن تكون فى بغداد، حيث اشتبك الناشئ فى عداوات عدة بسبب ما ألفه من كتب فى نقض منطق أرسطو، وإسقاط علل النحاة ، ونقد الشعراء. فاستعدى كثيرا من الناس عليه فجعلوا يثلبونه وينتقصونه ويرمونه بالتهويس، ويعملون ما فى وسعهم لاسقاطه حتى بلغوا ما أرادوا، واضطر الرجل إلى اللجوء إلى مصر. ومهما يكن من شىء ، فهذا الشعر قيل قبل سنة ٢٩٣ هـ، التى توفى فيها الناشئ الأكبر.

وعلى العكس من ذلك ، كانت علاقة أبى الحسن بالشاعر يموت بن المزرع البصرى، ابن أخت الجاحظ، فقد كانا صديقين. ولكن تتكرر ظاهرة قضاء الرجلين مدة من حياتهما فى بغداد والفسطاط، فلا نستطيع أن نقطع أين كان اللقاء بينهما.

---

[1] معجم الشعراء : ٢٨٠ .

أمـــا إذا كـــان يموت لم يذهب إلى بغداد قبل سنة ٣٠١هـــ، فإن المرجح أن يكون لقاؤهما قد وقع فى الفسطاط. وتوثقت الصلة بينهما حتى قال أبو الحسن [١]:

أنت يحيى والذى يكـــــــــــ ـــره أن تحيـــا يمـــــوت

أنت صنو النفس بـــــــل أنـــ ـــت لروح النفس قـــــوت

أنت للحكـــــــــــمة بيت لا خلـــــت منك البيـــوت

والمؤكـــد فى هذا الشعر أيضا أن أبا الحسن نظمه قبل سنة ٣٠٤ هـــ ، التى مات فيها.

ويكشـــف شـــعر أبى الحسن عن خصومة أخرى كانت بينه وبين من يسمى الفتح فقد قال[٢] :

تضيق به الدنيا فينهض هاربـــــــا إذا نحن قلنا: خيرنا الباذل الســـمح

فإن قيل: من هذا الشقى؟ أقل لهم على شرط كتمان الحديث :هو الفتح

فـــإذا كـــــان المعنى الفتح بن خاقان وزير المتوكل، الذى قتل معه فى سنة ٢٤٧هـــ، كان هذا الشعر من نظم بغداد، ومن أقدم ما نعرف من شعر الرجل.

ومن صلاته المجهولة أيضا ما كان بينه وبين أحد الأشراف، وكانت أم الرجل أمة قيمتها ثمانية عشر دينارا. فقد أتى بابه فحجبه خادم له، فقال فيه[٣] :

إذا وقع الضرير على خصـــــى فقد وقع المصاب على مصـــاب

فعتب عليه الشريف، فهجاه منصور بقوله :

من فاتنى بأبيـــــــــــــــه ولم يفتنى بأمـــــــــــــــه

ورام شتمى ظلمـــــــــــا سكت عن نصف شتمـــــــــه

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٦ .

(٢) الحصرى : زهر الآداب : ١٠٣٠ . جمع الجواهر : ١٢١ .

(٣) الحصرى : جمع الجواهر : ١٢١ ــ ١٢٢ .

فدفع إليه مئة دينار . وقال : اسكت عن الجميع .

والصلة الوحيدة التى لدينا بعض المعلومات عنها هى صلته بالقاضى أبى عبيد حـــربويه. فقد أعجب أبو الحسن منصور بالقاضى إعجابا شديدا، شاهدنا أثرا له فيما مضى.

وبـــادل القاضـــى أبا الحسن إعجابا بإعجاب، وودا بود، فقربه إليه، وأنزله منزلة خاصة. قال ابن خلكان[1] : " كان لأبى عبيد فى كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم. ويخلو به، خلا عشية الجمعة فإنه كان يخلو بنفسه فيها. فكان مـــن العشـــايا عشية يخلو فيها بمنصور، وعشـــــية يخلو فيها بأبى جعفر الطحاوى (أحمـــد بن محمد بن سلامة)، وعشية يخلو فيها بمحمد بن الربيع الجيزى، وعشـــية يخـــلو فيهـــا بعفان بن سليمان، وعشية يخلو فيها بالسجستانى وعشية يخلو فيهـــا للنظر مع الفقهاء" .

ولكـــن هـــذه المودة آلت إلى كارثة لم يتوقعها أحد، بسبب خلاف فى الرأى نشـــب بين الرجلين فى مناقشة لهما، ولم يحسنا معالجته، بل تفاقم الأمر فيه عليهما واستشـــرى حتى كاد يؤدى إلى مقتل أبى الحسن، وإلى فتنة بالفسطاط. تقول بقية الكـــلام الـــذى ذكرته : " فجرى بينه وبين منصور فى بعض العشايا ذكر الحامل المطـــلقة ثلاثا ووجوب نفقتها. فقال أبو عبيد: زعم قوم أن لا نفقة لها فى الثلاث، وأن نفقـــتها فى الطلاق غير الثلاث. فأنكر ذلك منصور وقال: قائل هذا ليس من أهل القبلة".

ثم انصرف منصور فحدث بذلك أبا جعفر الطحاوى. فحكاه أبو جعفر لأبى عبيد فأنكره. وبلغ ذلك منصور فقال : أنا أكذبه .

---

[1] الوفيـــات : ٢ : ١٦٣ . السبكى : طبقات الشافعية .

واجـــتمع الناس عند القاضى وتواعدوا لحضور ذلك. فلما حضروا لم يتكلم أحد. فابتدأ أبو عبيد وقال : ما أريد أحدا يدخل على ، ما أريد منصورا ولا نصارا ولا منتصـــرا، قوم عميت قلوبهم كما عميت أبصارهم، يحكون عنا ما لم نقله. فقال لـــه منصور : قد علم الله أنك قلت. فقال : كذبت . فقال: قد علم الله الكاذب . ونهـــض فمـــا جسر أحد من هيبـــــة القاضى أن يأخـــــــذ بيده إلا أبا بكر بن الحداد ... فشكر له هذا الصنيع ، وقال له : أحسن الله جزاءك، وشكر فعلك، وأخذ بيدك يوم فاقتك إليه.

ولم يقف الأمر عند هذا بل تدخل فيه دعاة الخير والسوء من أصدقاء الطرفين وخصـــومهما بغية إزالة الخلاف أو احتداده، استطرد الخبر يقـــــول : " ثم إن ابن الحداد أشار عليه بالرجوع إلى القاضى والاعتذار، فرجع فلم يمكنه الحاجب من الدخول إليه، ودفع فى ظهره ، وقال: لا سبيل لك إلى هذا، ثم تعصب لمنصور خلق كـــثيرون كانـــــــــوا يعتقدونه (على رأسهم) ذكا والى مصر من ٣٠٣ هـــ إلى ٣٠٧هـــ، وجماعـــة من الجند، وتعصب للقاضى جماعة منهم محمد بن الربيع الجيزى .

وسمـــع محمد بن الربيع منصورا يقول مقالة يحكيها عن النظام (أحد رؤوس المعـــتزلة) فنســـبها إلى منصور وشهد عليه بها عند القاضى فهلع منصور، وبلغه أن القاضى قال: إن شهد عندى شاهد آخر مثل محمد بن الربيع ضربت عنق منصور".

ويـــدور هـــذا الخبر بهذه الصورة عند جميع من ترجم لمنصور. ولكن بعض تفاصـــيله غـــير صـــحيحة ، فأبو محمد الربيع بن سليمان الجيزى، صاحب الإمام الشـــافعى، لم يش بأبى الحسن، ولم يتقرب إلى القاضى أبى عبيد، ولم يكن له دور فى القضـــية، بل لم يكن له واحدة من عشايا القاضى، لأنه لم يجتمع به فى الفسطاط ولم يـــره. فلم يَقدم القاضى إلى المدينة المصرية إلا بعد وفاة الجيزى بأكثر من عشرين

سنة على قول من قلل وقريب من أربعين سنة على قول من كثر، لأن وفاته كانت سنة ٢٧٠هـ، أو ٢٥٦هـ.

وعندما وقعت الفرقة بين الرجلين لزم أبو الحسن منصور منزله وجامع أحمد ابن طولون، الذى كان يأتى إليه كل يوم فلا يخرج منه إلى المساء، وهو محزون مغموم، ثم سقط مريضا، فكان يمنّى النفس أن يعوده القاضى. فلما لم يفعل اعتقد أن هذا شماتة منه . فقال[1] :

قضيت لحبى فسر قوم ... حمقى ، هم غفلة ونوم

كأن يومى علىّ حتم ... وليس للشامتين يوم

فبلغ ذلك القاضى أبا عبيد فأطرق ساعة ينكث بيده الأرض ثم قال :

تموت قبلى ولو بيوم ... ونحن يوم النشور توم

فقد فرحنا وقد سررنا ... وليس للشامتين لوم

وفى أحد أيام جمادى الأولى ودع الرجل دنيانا، دون أن يلتقى بخصمه ، فهاجت المشاعر التى كادت تهدأ، وقال أبو بكر بن الحداد من أصدقاء الرجل: "لوشئت لقلت: إن دية منصور على عاقلة القاضى ــ يريد أن أبا عبيد قاتله خطأ ــ فإن منصورا بلغت منه نكاية أبى عبيد حتى جاءت على نفسه" .

وبلغت القاضى وفاة منصور، فأسف على ما جرى منه، وعزم أن يتلافى بعض ما فاته بالصلاة عليه . فسمع أن جماعة كبيرة من الجند حملت السلاح وتهيأت لقتله إن هو برز للصلاة. فأحجم ، وكان ذلك سببا لتأخير الجنازة. ثم حضر الصلاة الأمير ذكا، وصاحب الخراج أحمد بن محمد بن بسطام، وخرجت الجنازة وحولها

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية : ويعقب على الخبر كله بما يدل على شىء من الشك، يقول: "والله أعلم بصحة ذلك" . ابن خلكان : الوفيات : ٢ : ١٦٣ . ياقوت : معجم الأدباء : ١٨٩/٧ .

متنا سيف، وآلاف من السكاكين، وأظهر الناس فيها سب القاضى وقذفه. وشارك الشـــــــعراء الناس فى الاحتفال بالميت، فرثاه منهم الحسن بن على الزيدى، وأبو إبراهيم الحسين بن إبراهيم الرمى، وأبو بكر بن الحداد[1] .

وأورد لـــنا ابن الجوزى أطول وصف لأبى الحسن منصور، حين قال[2] : " كان أديبا فهما عاقلا حاد المناظرة " .

وذكر السبكى ما يدل على أنه كان على شئ من اليسار ، وعدم الخضوع لما أصيب به فى عينيه، إذ قال[3] : " وربما كان يركب حمارا فارها " .

ويؤكد شعره هذا، فقد قال لما حلت به ملمته وجفاه الإخوان والرفقاء[4] :

من قال: مات ولم يستوف مدتـــه ... لعظم نازلة نالته معـــــــذور

وليس فى الحكم أن يحيا فتى بلغت ... به نهاية ما يخشى المقاديـــــر

فقل له غير مرتاب بغفلتـــــــه ... أو سوء مذهبه : قد عاش منصور

ويعطينا شعر أبى الحسن مجموعة من الصفات الخلقية والفكرية التى تحلى بها ، أو استشـــرف إليها ، أو تخيلها مثلا عليا، فهو قانع بما كتبه الله عليه، لا يرى فيما سلف من عمره إلا الخير، ويؤمن أنه لن يرى فيما يأتى غير الخير والفضل[5].

---

(1) المغـــــرب : ٢٦٣ .

(2) المنتظـــم : ٦ : ١٥٢ .

(3) طبقات الشافعيـــــــة .

(4) الحصرى : زهر الآداب : ٨٢٦ ، جمع الجواهر : ١٢١ .

(5) الحصرى : زهر الآداب : ٨٢٧ .

رضيت بما قسم الله لـــــــى وفوضت أمرى على خالقـــــى
كما أحسن الله فيما مضـــــى كذلك يحسن فيما بقـــــى

فهو لا يطلب من دهره غير القوت والصحة والطمأنينـــة[1] :

إذا القوت تهيـــــــا لك والصحـــــــة والأمـــــن
وأصبحت أخـا حـــــزن فلا فارقـــــك الحـــــزن

ويعجب أن يطمع الناس فيما وراء ذلك، فيرغمهم هذا الطمع على التنازل عـــن النفيس من خلقهم وشرفهم عند أناس حمقى متعجرفين لم يرفعهم غير منصبهم ومالهم[2] :

من كفاه من مساعيـــــــــــ ـــه رغيف يغتديـــــــــــه
وله بيت يواريـــــــــــ ـــه وثـــوب يكتسيـــــــــه
فعلام يبذل الوجـــــــــــ ـــه لذى كـــــبر وتيـــــه
وعلام يبـــذل العـــــــر ض لمخـــــــلوق سفيـــــه

وما كل هذا الذى يتناحر الناس من أجله إلا عَرَض زائل ، دال على تفاهة الراغبين فيه، فما يرغب فى الحقير إلا مثله[3] :

منافسة الفتى فيما يـــــزول على نقصـــان همتـه دليـــل
ومختار القليل أقل منـــــــه وكل فوائد الدنيـــا قليـــل

---

(1) الثعالبى : برد الأكبـــــاد : ١٢٤ .
(2) ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٨ . السبكى : طبقات الشافعيـــة .
(3) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة : ١ : ٣١٦ .

فـإن كان لا بد من الطمع فليسلك المرء الطريق الطبيعى لتحقيق ما يطمع فيه، الطريق الذى يكسبه الشرف والمجد، فإن نال الذى حارب من أجله كان ذلك الذى بغاه، وإن مات دونه تزه أن يكون لنذل منة عليه [1]:

الموت أسهل عنـــــــدى ... بين القنـــا والأســـــنه
والخيل تجرى سراعـــــــا ... مقطعـــات الأ عنـــــه
من أن يكون لنـــــــذل ... علىّ فضـــــل ومنـــه

ومهما يكن من أمر، فلابد من القصد فى الطمع، والاكتفاء بما يدركه المرء كائنا ما كان ، ففى ذلك طول العمر [2] :

كن بما أوتيتـــه مغتبطـــــا ... تستدم عمر القنوع المكتفـــى
إن فى نيل المنى وشك الـــردى ... وقياس القصد عند الســـرف
كســراج دهنـــه قوتـــــه ... فإذا غرقتـــه فيه طفـــــى

وخصـلة أخرى تتصل بالزهد بسبب قريب، حث عليـــها منصور، وإن كـانت شواهد حياته تدل على أنه لم يلتزمها، تلك هى العزلة. فقد رأى أنها الوسيلة الوحيدة التى تنقذ المرء من شرور الناس الذين يختلط بهم[3] :

الناس بحر عميـــــــق ... والبعد عنهم ســـــفينـه
وقد نصحتك ، فانظـــــر ... لنفســك المســـكينـه

---

(1) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة : ٣ : ١٦٣ .
(2) الصفدى : نكت الهميـان : ٢٩٧ .
(3) الثعالبى : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ ، منتخبات التمثيل والمحاضرة : ١١ . السبكى : طبقات الشافعية.

فإن بليت بالخروج من العزلة، والالتقاء بالناس، والحديث معهم، فلا تكثر ولا تطـل، فخير الكـــــلام ــ عنده كما كان عند المجتمع العربى عامة ــ ما قل ودل[1] :

لا تكثرن فخير الكـــلام قليل الحروف كثير المعانـــى

وتجـنب فى حديـثك أن تدّعى ما ليس فيك، فتلك رذيلة شنعاء، ومصيبة صماء[2] :

ومن البلوى التى ليـــــــ ـــس لها فى الناس كنـــــه

أن من يحسن شيئـــــــا يدّعـــى أكثر منـــــه

والشـــاعر يكره الكذب كراهية خاصة، والكذب عنده شر من الوشاية. فربما استطاع المرء أن يدفع الوشاية، أما الكذب فلا سبيل إلى دحضه وفضحه[3] :

لى حيلة فيمن يـــــنم (م) وليس فى الكذاب حيلـــــه

من كان يخلق ما يقـــــو ل فحيلتى فيـــه قليلـــه

وعاب الكبرياء ، فالمصدر الذى تخلّق فيه الإنسان، والمآل الذى يدفن فيه، ينكران عليه عجرفته، قال[4] :

تتيه وجسمك من نطفـــــة وأنت وعاء لما تعلـــم !

---

(١) الوطواط : غرر الخصائص : ١٧٧ .

(٢) الثعالبى : منتخبات التمثيل والمحاضـــــرة : ١٦ .

(٣) الســبكى : طـبقات الشافعية . ابن هداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٢ : ٢٤٩ .

(٤) العاملـــى : المخـــلاة : ٤٣ .

وقال[1] :

يا جيفـا من الجيـــــف مالكم و للصلـــف ؟

وذم خـلف الوعد ، وعدم التمسك بما يقوله الإنسان ، وعده من الظلم البين [2]:

من قال : لا ، فى حاجـــة مطلوبـــة ، فما ظلـــم

وإنما الظالـــم مـــن يقول : لا ، بعد نعـــم

وشـنع بالحسد، وجعله من الكبائر، لأنه اعتراض على ما قضت به القدرة الإلهية وتحـدّ لها[3] :

ألا قل لمن كان لى حاســـدا أتدرى على من أســأت الأدب ؟

أسأت على الله فى حكمـــه لأنك لم ترض لى ما وهـــب

وطبيعى أن يمر إنسان مثل منصور تنقل بين العراق والشام ومصر، واتصل بالخـلفاء والـولاة والقضاة والشعراء والعلماء والأعيان، أن يمر مثل هذا الإنسان بمجموعـة كبيرة ومتعددة من التجارب. وطبيعى أن يستخرج إنسان مثل منصور شارك العلماء علمهم، والشعراء فنهم، والناس حياتهم، وتحلى بما ذكر ابن الجوزى مـن صـفات، أن يستخرج مثل هذا الإنسان من هذه التجارب دلالاتها، ويستمد منها نظرات تكون هادية له فى معيشته وتفكيره. وطبيعى أيضا أن يؤثر ما أصيب به منصـور فى عيـنيه فى نظراته، ويصبغ هذه الدلالات بألوان حزينة ، ويلتفت إلى

---

(1) نفس المرجع . العلوانى : قطر الغيث المسجم : ٥٠ .

(2) الثعالبى : الإيجاز والإعجـــاز : ٦٦ .

(3) الخليلى : مختصر الدرالمكنـــون .

الجـانب الأسود قبل الأبيض، ويكون أقرب إلى التشاؤم والسخط منه إلى التفاؤل والرضى ... وقد كان ذلك كله . فقد كان يرى الأيام جادة لا تعرف الهزل[1] :

تغابن الأيام تقديـــــر وأخذهـــا جد وتشـــمير

وأنها لا تأتى إلا بالسوء، ولا تفعل غير إهلاك الأحبـــة[2] :

ماذا أرتنا الليـــــــالى ماذا أتين إلينـــــــا

فى كل يوم نعـــــــزّى فيمن يعـــــزُّ علينـــــا

وأن الـناس أبـناء دهـرهم، لا يمـتازون عنه فى شئ. بل هم أشد إثارة للمخاوف من الدهر، وأعظم شرا [3]:

لو قيـــل لى : خذ أمانـــا من حادث الأزمـــــان

لما أخـــــذت أمانـــا إلامـــن الإخـــوان

فالرياء فاش فيهـــم جميعـــا [4] :

كل من أصبح فى دهـــرك ممن قد تـــــراه

هو فى خلفـك مقـــراض وفى وجهـــك مـــاه

ولا يذكـرون إلا مـن يرونه أمامهم، فإن اختفى عن عيونهم نسوه كأن لم يعش بينهم، مهما كانت درجته [5] :

كل مذكـــور مـــن الناس إذا ما فقـــــدوه

صار فى حكم حديـــــث حفظـــوه فنســـوه

---

(1) السبكى : طبقات الشافعيـــة .

(2) الثعالبى : الإيجاز والإعجـــاز : ٦٧ .

(3) الحصرى : زهر الآداب : ٨٢٧ .

(4) الثعالبى : الإيجاز والإعجـــاز : ٦٧ .

(5) نفس المرجع : ٦٦ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٨ .

وقد أولعوا بالأغنياء : فإما ينالون من مالهم وإما من عرضهم[1] :

أبى الناس أن يدَعوا موســـــرا سليم الأديم سليم النســـــب

وقد خبروك، فإن لم تطـــــب بعرضك نفسا، فطب بالذهـــب

ولكـــن لا تـــتمنَّ الغـــنى لأحـــد ممن تعرف، وإلا كنت تتمنى لعلاقتكما الانفصام، لأن الغنى لا بد أن يبطره ويغيره[2] :

إذا ما رأيت امرءا فى حال عسرته بادى الصداقة ما فى وده دغـــل

فلا تمنَّ له حالا يسرّ بهـــــا فإنه بانتقال الحال ينتقـــــــل

وإذن لن تخسر شيئا إن ابتعدت عنهم، وبرئت من صحبتهم، فإن لم تستطع واضطررت إلى مخالطتهم فلن تفقد شيئا إن عدمت رؤيتهم [3]:

قالوا : العمى منظر قبيـــــح قلت : بفقدى لكم يهـــــون

تالله ما فى الأنام شـــــىء تأسَـــى على فقده العيـــون

بل لن تفقد شيئا إن عدمت الحياة معهم، والموت خير من تلك الحياة، التى تمتـــلئ بالظالمين، لأنه يخلص المرء منهم ومن مخاوفه جميعا حتى خوفه من لقاء الموت نفسه[4] :

قد قلت، إذ وصفوا الحياة فأسرفوا: فى الموت ألف فضيلة لا تعـــرف

منها أمان لقائه بلقائـــــــه وفراق كل معاشر لا ينصـــــف

---

(1) الحصرى : جمع الجواهر : ١٢١ .

(2) الوطواط : غرر الخصائص : ٤٦٩ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٧ .

(3) ابن الوزير : عنوان المرقصـــات ٥٩ .

(4) أسامة : البديع : ٢٣٩ . الثعالبى : الإيجاز والإعجاز ٦٧ . السبكى: طبقات الشافعية.

ونـــالت الصداقة نصيبا ملحوظا من شعر منصور، ربما ظهرت له آثار فيما مضى من قول، وتتجلى بقية الآثار فيما بقى من شعر. وقد أعجب بعض الأدباء بما قاله منصور عن حاجة الإنسان إلى صديق، تلك الحاجة التى يشعر بها من كان مثل منصور أكثر من شعور غيره ممن سلم بصره. قال رشيد الدين الوطواط [1]: "لم يقل فى احـــتياج الإنسان إلى صديق يزينه فى المشاهد ، ويعينه على بلوغ المقاصد، مثل قول الفقيه منصور:

لولا صدود الصديق عـــــنى ما نال واشٍ مناه مـــــــنى
ولا أدمت البكاء حـــــتى قرّح فيض الدموع جفـــــنى
وما جفاء الصديـــــــق إلا هجوم خوف عقيب أمـــــــن

وأعلن أن الصداقة ما وقر فى القلب من ود، وأنها لا سبيل إلى إثبات صدقها إلا مـــا يحس به قلب الصديق الآخر، فالصداقة .. إن صدقت .. كانت من الطرفين لا محالة،وإن قلب الصديق أقدر الأشياء على التعرف على قدر صداقة الصديق[2]:

شاهد ما فى مضمـــــــــرى من صدق ود ، مضمـــــــرك
فان أردت وصفـــــــــه قلبك عـــــنى يخـــــــبرك

أما الود المصطنع فيمكن أن تجد الشواهد التى تدل عليه [3]:

إذا تخلفت عن صديـــــــق ولم يعاتبك فى التخـــــــلف
فلا تعد بعدهـــــا إليـــــه فإنما وده تكلـــــــــف

ولذلك لم يكن يمهل صديقه أكثر من أيام معدودات، فإن زاد عليها ساءله وعاتبه [4]:

---

(1) غرر الخصائص : ٤٢٢ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٧ .

(2) الثعالبى : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(3) نفس المرجع السابق ، ومنتخبات التمثيل والمحاضرة : ١١ .

(4) الثعالبى : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٨ .

منذ ثلاث لم نـــــــــــرك فقل لنا : ما أخـــــــــــرك؟

أعلة ، فنعـــــــــــذرك أم دهـــــر سوء غـــيرك ؟

وكان من أجمل ما نظم من شعر ثناؤه على صديق له [1] :

أخ لى عنـــــــــــده أدب مودة مثلـــــه نســـــب

رعى لى فوق ما يرعـــــــى وأوجب فوق ما يجـــــــب

فلو سُبِكت خلائقـــــــــه لبُـــهرج عندهـــا الذهـــب

ويدل ما بقى من شعر منصور على أنه شارك فى بعض القضايا التى شغل بها مجـتمعه. وأهـم قضـية تردد ذكرها عنده التنجيم. فقد كان أمرا شائعا يؤمن به الخـاص والعام، ويتحراه الناس فى كثير من أعمالهم. ولكن منصورا هاجمه هجوما عـنيفا متكررا. فقد أعلن أن النجوم لا تضر ولا تنفع، وإنما هى علامات تدل على الوقت [2] :

ليس للنجم إلى ضـــــــر (م) ولا نفع سبيـــــــــــل

إنما النجـــــــــم على الأو قـــات والسمت دليـــــل

وتبرأ ممن يؤمن بأن للنجوم ضرا أو نفعا . مهما كانت قرابته له[3] :

من كان يخشى زحـــــــــلا أو كان يرجو المشـــــــترى

فإننى منـــــــــه ــ وإن كان أبى الأدنى ــ بـــــرى

لأنه عد ذلك لونا من الإشراك بالله [3] :

إذا كنت تزعم أن النجـــــوم تضر وتنفع من تحتهـــــــا

فلا تنكرن على من يقـــــول : بأنك بالله أشركتهـــــــا

---

(1) الثعالبى : من غاب عنه المطرب : ٢٨٧ .

(2) السبكى : طبقات الشافعية . ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ١٨٧ .

(3) ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٦ . السبكى : طبقات الشافعية .

وعـبر عمـا كان مجتمعه ـ ولازال مجتمعنا العربي ـ يتمسك به، من أن أصل الإنسان مؤثر فيه، مسيطر عليه، فإذا أردت أن تعرف جوهر إنسان فلا تسأل عنه وإنما عن آبائـه [1] :

قال : فلان ما فعـل ؟ قلت : أبوه ما فعـل ؟
فكـان في سـؤاله جوابه عمـا سـأل

وصـرح بـرأيين شخصيين له ، ذهب في أحدهما إلى أن المناصب العليا لها أوقـات معينة تصلح لها، فإن نال امرؤ واحدا منها أو حاول ذلك قبل أوانه كان وبالا عليه وعلى الناس [2]:

الكلب أحسن عشـرة وهو النهايـة في الخسـاسـه
ممن ينازع في الريـا سـة قبل أوقـات الرياسـة

وذهـب في الثاني إلى أن العلم والعمل يجب أن يجتمعا في المرء ليكون دينا فاضلا. فالعلم بالدين غير نافع دون مواظبة على أوامره، وتجنب لنواهيـه [3]:

لو كنت منتفعـا بعلـمـك مع مواصلة الكبائـر
ما ضر شـرب السـم واعـلـم أن شـرب السم ضائـر

ولم يكن كل شعر منصور من هذا اللون، الذي يصور خلق صاحبه، ويمثل أفكاره، ويبرز مثله، فيجلو شخصه إزاء المجتمع الذي عاش فيه. فقد انغمس منصور فـيما انغمس فيه مجتمعه، وشغل بما شغل به شعراؤه. فطبيعي أن يشاركهم نواحي

---

(1) الثعالبي : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(2) ابـن هـدايـة الله : طـبقات الشافعية : ١٢ . السبكي : طبقات الشافعية . العماد : شذرات الذهب : ٢: ٢٤٩.

(3) الحصري : زهر الآداب ٨٢٧ .

فـــنهم ، ويذهب مذاهبهم، فينظم فى الأغراض التقليدية التى ألفوها. ولكن الشعر الـــذى وصل إلينا من هذه الأغراض قليل . مما يدل على أن من رووا شعره فضلوا ما نظمه فى الأمور السابقة على ما قاله فى الأغراض التقليدية.

وأقـــل مـــا فى هذا القليل ما كان فى الغزل. فلا نمتلك منه غير مقطوعتين ليس فيهمـــا مـــا يســـتحق الملاحظة فى فكرة أو صورة أو عبارة، فالأفكار فيهما عادية وشائعة، والعبارة لا تمتاز بشىء، قال فى أولاهما يخاطب حبيبته التى سماها خلوبا[1] :

قد قلت ، لما أن شـــــــكت ... تركى زيارتها خلـــــــــوب

. إن التباعد لا يضـــــــــر ... إذا تقاربت القلـــــــــوب

وقال فى الثانيـــــــــة [2]:

سررت بهجرك لما علمـــــــت ... بأن لقلبك فيـــه ســـــرورا

ولولا سرورك ما ســـــــرنى ... وما كنت يوما عليه صبـــــورا

لأنى أرى كل ماساءنى ــ إذا كان ... يرضيك ــ سهلا يســـــــيرا

أمـــا المـــدح فـــلا شك أنه كان كثيرا، لأن الرجل اعتمد عليه فى معاشه. فحـــاول الاتصـــال بالخـــلفاء فى بغداد. ولما أخفق تنازل عن طموحه وابتعد عن العاصـــمة واتصل بالأمراء والأعيان. وقد مر بنا نماذج من مدحه لا تدل على كبير غَناء. وعلى الرغم من ذلك له أبيات اعتمد عليها شعراء كبار. ذهب القاضى على ابن عبد العزيز الجرجانى[3] إلى أن المتنبى اعتمد فى قوله :

لو فرق الكرم المفرق مالـــــــه ... فى الناس لم يك فى الزمان شحيح

على قول منصـــــور :

---

(1) الثعالبى : الإيجاز والإعجاز : ٦٦ . ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٨ .

(2) ياقوت : معجم الأدباء : ٧ : ١٨٧ .

(3) الوساطـــــــة : ٢٩١ .

لو أن ما فيه من جود تقسمـــه أولاد آدم عادوا كلهم سمحـــا

ومن أجلّ ما عثرت له مما يتصل بهذا الغرض ما قاله فى رثاء [1] :

سألت رسوم القبر عمن ثوى به لأعلم ما لا قَى ، فقالت جوانبه

أتسأل عمن عاش بعد وفاتـــه بمعروفة إخوانه وأقاربـــــه

وإذا كان هذا حظ أبى الحسن منصور من هذه الأغراض الشعرية فإن حظه مـــن الهجاء كان مغايرا. فمن كان يتمتع برهافة الحس التى لا بد أن يكتسبها من كـــان مـــثل منصور فى علته، ومن كان وَقْع هذه العلة عليه كما كان وقعها على منصـــور، من سوء ظن بالناس، وميل إلى الهجوم العنيف عليهم، من كان كذلك لا بد أن يبرع فى الهجاء . وقد اطلعنا على بعض أمثلة هجائه ، التى يمكن أن نرد إليه كـــثيرا مـــن الشعر الذى أوردته فى دراسة خلقه وأفكاره. ومن أمثلته أيضا قوله لصديقه الذى قلّد منصبا ما فجفاه ، فقال له[2] :

يا من تولى فأبـــــــــدى لنا الجفا وتبـــــــــــدل

أليس منك سمعنـــــــــا من لم يمت فسيُعـــــــــزل

وكان فى بعض الأحيان يعتمد على السخرية، والالتفاتة الذهنية البعيدة، فى هجائه ، مثل قوله[3] :

يا من يرى المتعة فى دينـــــــه حلا وإن كانت بلا مهـــــــر

ولا يرى تسعين تطليقـــــــة تبين منها ربـــة الخـــــدر

من ههنا طابت مواليكـــــم فاجتهدوا فى الحمد والشـــكر

---

(1) الوطواط : غرر الخصائص : ٢٣٥ .

(2) الثعـــالبى : الإيجـاز والإعجاز : ٦٦ . منتخبات التمثيل والمحاضرة : ١٦ . الحصرى : جمع الجواهر : ١٢١ .

(3) الحصرى : جمع الجواهر : ١٢١ .

ولهذا كله كان معاصروه يخافون لسانه، وروى الحصرى [1]: "المصريون يقولون: احذر منصورا إذا رمح بالزوج".

وهناك غرض شعرى آخر، أو أثر مذهبى قيل إنه صبغ شعره. فقد قال ابن الجوزى، والصفدى [2]: "يظهر فى شعره التشيع". ولكنى لم أعثر على مصداق هذا عند من عنى بترجمة الشاعر ترجمة مطولة، ولا على صدى له فيما وصل إلى من شعره.

وخلاصة القول فى أبى الحسن منصور بن إسماعيل التميمى إنه كان من شعراء المقطعات القصار، يقول البيتين والثلاثة، ولاحظ فى التطويل، مثله فى ذلك مثل الجماز وابن بسام [3]، وأن القدماء فطنوا لذلك فوصفوه بالشاعر، ورأى أكثرهم فى الاكتفاء بهذا الوصف غبنا له فنعتوه بالشاعر المجيد [4]، ووصفوا شعره بالملاحة [5] والحسن. وأعجب كثيرون بمقطوعات من شعره، ولا سيما الثعالبى الذى كان أعظم من احتفى به، وأشد من احتفل بروايته فى كتبه، فجعل بعضه من المطرب [6]. ووصف بعضه الآخر بأنه من "طرفه وملحه الآخذة

---

(1) الحصرى: جمع الجواهر: ١٢١.

(2) ابن الجوزى: المنتظم: ٦: ١٥٢. الصفدى: نكت الهميان: ٢٩٧.

(3) نفس المرجع: ١٢٠.

(4) السبكى: طبقات الشافعية. ابن خلكان: الوفيات: ٢: ١٦٣. العماد: شذرات الذهب: ٢: ٢٤٩. ياقوت: معجم الأدباء: ٧: ١٨٥.

(5) ابن خلكان: الوفيات: ٢. ابن الجوزى: المنتظم: ٦: ١٥٢. السبكى: طبقات الشافعية. العماد: شذرات الذهب: ٢: ٢٤٩. السيوطى: حسن المحاضرة: ١: ٢٢٥. الشيرازى: طبقات الفقهاء.

(6) من غاب عنه المطرب: ٢٨٧.

بمجامع القلوب" [1]. ولست أجد فى وصفه أصدق من قول صاحب شذرات الذهب [2]: "كان شاعراً خبيث اللسان فى الهجو" ، ولا أصدق وأوفى من حيث الجانب الموضوعى من قول صاحب المغرب[3] : له مقطعات كثيرة فى الزهد والحكم والأمثال « ولا أصدق وأدق من حيث الجانب الفنى من قول صاحب زهر الآداب [4]: حلو المقطعات ، لاتزال تندر له الأبيات مما يستظرف معناه، ويستحلى مغزاه ، ويبقى نثاه » .

*****

(1) الإيجاز والإعجاز : ٦٦ .

(2) ٢ : ٢٤٩ . وابن هداية الله : طبقات الشافعية : ١٢ .

(3) ٢٦٢ .

(4) ٨٢٦ .

«سيرة عمر بن عبد العزيز»
لعبد الله بن عبد الحكم

في منتصف العهد الأموى ، اندلعت نيران الحروب الأهلية بين الأمويين أصحاب السلطان فى دمشق والزّبيريين فى مكة ، وانقسم العالم الإسلامى على بعضه، بين الفريقين المتحاربين. وقام فى مصر جماعة تناصر الزبيريين استطاعت أن تتغلب على الوالى الأموى، وتضم البلاد إلى معسكر الحجاز، وتنصّب واليا يحكم باسم عبد الله بن الزبير .

ولكن لم تنقض سنة واحدة حتى استطاع الأمويون استرجاع مصر إلى صفهم فقد أتى " مروان بن الحكم" على رأس جيش كبير، تمكن من هزيمة الزبيريين. وأراد مروان أن يضمن ولاء مصر ، فنصب ابنه "عبد العزيز" واليا عليها، ومنحه السلطة المطلقة للتصرف فى شئون البلاد.

وبقى عبد العزيز بن مروان واليا على مصر قريبا من إحدى وعشرين سنة، بين عامى ٦٥ و ٨٦ هـ، وهى مدة لم يتمتع بها وال آخر فى العهد الإسلامى كله. وكان عبد العزيز شبه حاكم مستقل عن عاصمة الخلافة التى كان هو نفسه وليا لعهدها. ولذلك خلف من الآثار فى مصر أكثر مما خلفه وال آخر. وكان مما خلفه أسرته وأبناؤه الذين أقاموا بمصر وتكاثروا، وكان لهم من الأثر فى تاريخها ما يظهر جليا أيام الأمويين والعباسيين بعدهم.

ولم تخص هذه الأسرة مصر وحدها بآثارها بل منحت الإسلام خليفة لا زال يفخر به إلى اليوم وسيبقى مباهيا به أبد الآبدين ، وذلك هو عمر بن العزيز، الذى يلحقه كثيرون بالصحابة ، لأنه ـ إن فاته فضل صحبة الرسول صلى الله

عـــليه وسلم ـــ لم تفته أخلاق الصحابة ودينهم ، بل ينتزعه بعض المؤرخين ويجعله خامس الخلفاء الراشدين.

ذلـــك الـــرجل ... عنى به مؤرخو الإسلام عناية بالغة ، وأفـــردوا له فصولا من مؤلفاتهم أو كتبا مستقلة. وليس بغريب أن يكون من أول الكاتبين عنه ـــ بل لعله أولهم ـــ مؤلف مصرى .

هـــذا المؤلف المصرى هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث ابـــن رافع ، من الأسرة التى اشتهرت فى حياة مصر الثقافية والسياسية باسم " بنى عبد الحكم " .

ولم يشر أحد من المؤرخين إلى الوقت الذى دخل فيه بنو عبد الحكم مصر، ولا إلى أصلهم القديم، وإنما قيل إنهم من موالى عثمان بن عفان، أو من موالى بعض مـــوالى عـــثمان. ثم تبرز الأسرة بروزا واضحا فى حياة مصر فى النصف الثانى من القـــرن الـــثانى والنصف الأول من القرن الثالث، وتحتل مرتبة رفيعة فى عالم العلم والدين والمال والسياسة.

فقد ولد مؤلف هذا الكتاب الذى نتكلم عنه فى الإسكندرية فيما بين عامى ١٥٠هـــــ، ١٥٥ هـــــ، ودرس الفقه والحديث على الإمام مالك ، والليث بن ســـعد، ومفضّل بن فضالة ، وبكر بن مضر ، وغيرهم. ووصل إلى درجة كبيرة من العـــلم. وصفه المؤرخون فقالوا: كان إماما فقيها فاضلا، وقالوا : كان رجلا صالحا ثقـــة مـــتحققا بمذهب مالك، فقيها إماما صدوقا عاقلا حليما، وكـــان من ذوى الأموال والرّباع، له جاه عظيم ، وقدر كبير، وكان يزكّى الشهود ويجرّحهم ، وهو من أجلّة أصحاب الإمام مالك، وأعلمهم بمختلف قوله، أفضت إليه الرئاسة بمصر بعد أشهب.

وكـــان صديقا للإمام الشافعى، وعليه نزل حين قدومه إلى مصر، فأحسن إليـــه وأكرم مثواه، وأعطاه من ماله ألف دينار، وأخذ له من ابن صامة التاجر ألف ديـــنار، ومن رجلين آخرين من أصحابه ألف دينار ، وكتب كتبه، وضم ابنه محمدا إليه. ولم يزل على إكرامه إلى أن توفى الشافعى، فدفنه فى تربتهم المعروفة باسمهم.

وألف عبد الله بن عبد الحكم عدة كتب فى الفقه. وأنجب أربعة أبناء كلهم بـــلغ مرتبة علمية سامية، وكان له المؤلفات المرموقة. ومات بين عامى ٢١٣هـــ، ٢١٥هـــ، وقـــال يـــاقوت ســـنة ٢٢٤هـــ. ودفن فى قبر إلى جانب قبر الإمام الشـــــافعى.

وقـــد رســـم المؤلف لكتابه نهجا عاما يتناول سيرة عمر بن عبد العزيز فى مراحـــلها المختـــلفة. ولكنه لم يجعل لكل جانب منها فصلا خاصا به لا يتعداه إلى غيره، فكثيرا ما نجد بعض المواد التى كان المؤلف قد تكلم عن مثيلات لها فى موضع ســـابق بإسهاب ، مذكورة فى موضع آخر غير لائق بها. فالتقسيم عند المؤلف غير دقيق كل الدقة، ولكننا نستطيع القول بأنه راعى التقسيم التالى.

اســـتهل راوى الكتاب ، وهو عبد الله محمد ، ابن المؤلف ، ببيان المصادر التى اعتمد عليها أبوه فى جمع مواد كتابه، فقال:

"حدثنى أبى عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثنى مالك بن أنس، والليث بن ســـعد، وســـفيان بن عيينة ، وعبد الله بن لهيعة، وبكر بن مضر، وسليمان بن يزيد الكعـــبى، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وموسى بن صالح، وغيرهم مـــن أهـــل العلم ممن لم أُسمِّ بجميع ما فى هذا الكتاب من أمر عمر بن عبد العزيز، على ما سميت ورسمت وفسرت، وكل واحد منهم قد أخبرنى بطائفة، فجمعت ذلك كـــــــله" .

وأعقب ذلك بالقصة المشهورة الخاصة بخلط اللبن بالماء، والدالة على فضل جدتـــه وخلقها. قال : "فكان مما ذكر من ذلك أن عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عـــنه ـــ نهـــى فى خلافته عن مذق اللبن بالماء، فخرج ذات ليلة فى حواشى المدينة، فـــإذا بامـــراة تقول لابنة لها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟ فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟ فقالت: قد مذق الناس فامذقى، فما يدرى أمـــير المؤمنين. فقالت: إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم ، ما كنت لأفعله وقد نهـــى عـــنه. فوقعت مقالتها من عمر . فلما أصبح دعا عاصما ابنه فقال: يابنى ، اذهب إلى موضع كذا وكذا، فاسأل عن الجارية، ووصفها له ، فذهب عاصم فإذا هى جارية من بنى هلال. فقال له عمر : اذهب يابنى فتزوجها، فما أحراها أن تأتى بفـــارس يسود العرب. فتزوجها عاصم بن عمر ، فولدت له أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، فأتت بعمر بن عبد العزيز" .

وانتقل من ذلك إلى ذكر مولد عمر، ونشأته ، وتوليه المدينة، وسلوكه فى أثناء ولايته قال :

ثم ولى عمـــر المدينـــة فســـار بأحسن سيرة، وكان مع ذلك يعصف ريحه، ويـــرخى شعره، ويسبل إزاره، ويتبختر فى مشيته، وهو مع ذلك لايغمص عليه فى بطـــن ولا فـــرج ولا حكم ... قال مزاحم : ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة، نظرت فإذا القمر فى الدّبران، فكرهت أن أقول ذلك له ، فقلت: ألا تنظر إلى القمـــر، ما احسن استواءه فى هذه الليلة ! فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران، يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكنا نخرج بالله الواحد القهار" .

ثم عـالج طـريقة استخلاف عمر، وسلوكه فى أثناء خلافته. ونستطيع أن نرى أن المؤلف حاول أن يفرد مواضع خاصة بخطبه، ورسائله ، ومواعظ الناس له، وأدعيـته، وآرائه، ومناظراته، ولكنه لم يلتزم الدقة الصارمة فى هذا التقسيم. ولعل سبب ذلك إطالته فى هذه الموضوعات، حتى إنها تكاد تشغل الكتاب كله وميله إلى نشر مناقب عمر بينها، لأنها همّه الأول فى تأليف الكتاب. قال :

" فجـلس للـناس بعد ثلاث، وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها، فرد المظـالم، وأحيـا الكتاب والسّنة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها ، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل.

ولمـا وُلّى عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه فقال: يا معشر الناس إن تقومـوا نقُـم ، وإن تقعـدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين. إن الله فرض فـرائض، وسـن سـننا، من أخذ بها لحق، ومن تركها محق. ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، وبدلنا من العدل إلى مـا لا نهتدى إليه، ويكون عونا لنا على الحق، ويؤدى الأمانة إلينا وإلى الناس، ولا يغتب عندنا أحدا، ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا، والدخول علينا" .

وخـتم الكتاب بوفاة عمر، ومدة خلافته، وبعض جوانب من سيرته أيضا. قـــال:

" ولما مرض عمر بن عبد العزيز مرضه الذى مات منه، وقد مات أعوانه : سهل أخوه، وعبد الملك ابنه، ومزاحم مولاه، قام حَبْوا إلى شَـنٍّ معلق فتوضّأ منه فأحسـن الوضـوء. ثم أتى مسجده فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إنك قد قبضت سـهلا وعـبد الملك ومزاحما ، وكانوا أعوانى على ما قد علمت فلم أزدد لك إلا حـبا، ولا فـيما عندك إلا رغبة، فاقبضنى إليك غير مضيّع ولا مفرّط. فما قام من مرضه ذلك حتى قبضه الله تعالى " .

وجملة القول فى هذا الكتاب ما قاله الإمام النووى: " وقد جمع ابن عبد الحكم فى مناقب عمر ابن عبد العزيز مجلدا مشتملا على جميل سيرته وحسن طريقته، وفيه من النّفائس ما لا يستغنى عن معرفته والتأدب به " ، وما قاله ناشره: "فهذا كتاب جمع فيه مؤلفه عبد الله بن عبد الحكم جزءا ما جمعه الله للخليفة الراشد سيدنا عمر بن عبد العزيز من الأخلاق الفاضلة، والسياسة الحكيمة، ووصف فيه بعض ما اتصف به ذلك الإمام العادل من قوة فى الحق على الباطل ، وشدة فى الله على الأشرار وأهل الأهواء ... فكان هذا الكتاب خير ما ينشر بين الجمهور".

****

«ولاة مصـــــر للكنـــــدى»

فى جاهلية العرب، وقبل ظهور الإسلام بقريب من مئة وخمسين عاما، عاش فى الـــبحرين على الخليج الفارسى، قبيلة يمنية الأصل، وأقامت لها ملكا، مد ظلاله على عرب تلك النواحى وعرب نجد، وعرفت ألوانا من الحضارة والترف، ظهرت آثـــاره فى الشـــعر العربى، وخاصة شعر ابنها المشهور امرئ القيس، أعظم شعراء الجاهـــلية. تلك القبيلة هى قبيلة كندة. ولكن سرعان ما زالت دولة هذه القبيلة، فأخذت تتقلص ظلال سلطانها وتتضاءل قوتها، حتى اضطرت أخيرا إلى الرجـــوع إلى وطنها القديم : اليمن .

وبـــزغ فجـــر الإسلام ، فحملت قبيلة كندة أحد مشاعله، وسارعت مع أخواتهـــا القـــبائل العربية لبسط نوره على العالمين، فكان لها دور ملحوظ فى فتوح العـــراق والشـــام. وأخذ قبسا من هذا المشعل أحد فروع هذه القبيلة، وسار مع عمرو بن العاص، لتخليص مصر من ظلم الرومان. ذلك الفرع هو تجيب.

وإذ انـــتهت فتوح مصر، نزل بنو تجيب حيا خاصا بهم من أحياء العاصمة الجديدة "الفسطاط" وشاركوا فى أحداث مصر مشاركة عظيمة بارزة الأثر.

وفى العاشر من ذى الحجة من عام ٢٨٣هـــ، الموافق اليوم السابع عشر من يـــناير لعـــام ٨٩٧، ولد لهذه القبيلة أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب، مؤلف واحـــد من أقدم الكتب التى تعالج التاريخ الأول لمصر الإسلامية. ولا نعرف الكثير من تفاصيل حياة هذا المؤلف المصرى، وإنما وصل إلينا أنه تلقى دروسه على عالمين أولهمـــا مؤرخ مصـــــرى هو ابن قديد، وثانيهما محدّث فارسى دخل مصر سنة

٣٠٢هـ، هو النسائى، صاحب أحد كتب الحديث الستة المشهورة صحتها. وظهر أثر أستاذه الأول فى كتبه التاريخية، أما أستاذه الثانى فلم يكن ظاهر الأثر فيه، غير أنه يقال إن أبا عمر الكندى حدّث فى آخر عمره، وسُمع عنه الحديث النبوى، ولكنه لم يبلغ فى الحديث مبلغه فى التاريخ.

ووصف بعض المؤرخين الكندى فقال : كان من جملة أهل العلم بالحديث والنسب، عالما بكتب الحديث ، صحيح الكتابة، نسّابة، عالما بعلوم العرب ... وكان من أعلم الناس بالبلد (يريد مصر) وأهله وأعماله وثغوره.

وألف الكندى عدة كتب تعالج نواحى أو عهودا أو رجالا من التاريخ المصرى. ألف الخطط، وهو أول من أفرد كتابا خاصا فى هذا اللون من التأليف عن المصريين. وألف أخبار أهل الراية الأعظم، وسيرة السرى بن الحكم، وكتاب الموالى من أهل مصر، وكتاب الخندق والتراويح، وكتاب الأجناد الغرباء ، وكل هذه الكتب مفقود لا نعرف عنه غير اسمه وبعض مقتبسات منه. وله أيضا كتاب قضاة مصر، وكتاب أمراء مصر، وهما الكتابان الباقيان له. وقد اشتهر الكتاب الأخير حديثا باسم ولاة مصر.

وفى الثالث من شهر رمضان عام ٣٥٠ هـ، الموافق الخامس عشر من أكتوبر لسنة ٩٦١م ، توفى أبو عمر محمد بن يوسف الكندى، المؤرخ المصرى، ودفن بمقابر غافق وكندة من الفسطاط.

وليس الكندى أول مؤرخ ألف فى تاريخ مصر، بل ألف قبله الليث بن سعد المتوفى عام ١٧٥هـ، وسعيد بن كثير بن عفير المتوفى ٢٢٦هـ، وأبو زرعة عبد الأحد بن الليث، وسعيد بن أبى مريم المتوفى ٢٢٤ هـ، وأحمد بن محمد الطحاوى المتوفى ٣٢١هـ، وغيرهم. ولكن كتابه أقدم كتاب فى تاريخ مصر العام وصل إلى أيدينا.

ويعـــالج هـــذا الكتاب التاريخ المصرى منذ الفتح العربى إلى وفاة محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية عام ٣٣٥ هـــ ، فقد نزل به الموت قبل إكمـــال كـــتابه والوصول به إلى سنة وفاته. ولكن بعض الباحثين القدماء قام بهذه المهمة نيابة عن المؤلف، فألحق بالكتاب أخبار الدولة الاخشيدية كلها ووصل بها إلى دخول الفاطميين مصر عام ٣٦٢هـــ، أى بعد وفاة المؤلف باثنتى عشرة سنة، فأثار ذلـــك العمـــل الشك حول موعد وفاة المؤلف، إذ ظن بعض الدارسين أن الأخبار الملحقة من قلم المؤلف نفسه، وذهب إلى أنه لم يمت عام ٣٥٠هـــ.

والهدف الأول للمؤلف تدوين أسماء الأمراء الذين تولوا مصر فى الفترة التى يعالجهـــا، والاختصاصات التى كانت لكل منهم. فقد قسمت السلطة فى مصر فى العهـــد الإســـلامى بين ثلاثة رجال . أما السلطة التنفيذية فكانت من نصيب أمير الصلاة،ويعينه الخليفة، وكانت الإدارة المالية خاضعة لصاحب الخراج، الذى يعينه الخـــليفة، وجمـــع بعض الأمراء بين اختصاصات السلطتين السابقتين . وتلى هاتين الوظيفـــتين وظيفـــة صاحب الشرطة ، ويعينه الوالى. وظهرت فى العصر العباسى وظيفـــة رابعة، هى وظيفة صاحب البريد، وكانت مهمته مراقبة الأحوال فى منطقته وإرسال التقارير الدورية عنها، وكانت مراقبته تشمل الوالى نفسه.

يقول المؤلف :

" هـــذا كـــتاب تســـمية ولاة مصر ، ومن ولى الصلاة ، ومن ولى الحرب والشرطة منذ فتحت إلى زماننا هذا، ومن جمع له الصلاة والخراج" .

وواضح أن همه موجّه نحو أمراء الصلاة، وأصحاب الشرطة ، أما أصحاب الخراج فلا يذكرهم فى كتابه إلا حين تدعو الضرورة.

وســـار المؤلف فى كتابه سيرا تاريخيا، فاستهله بعمرو بن العاص فاتح مصر وأول وال عليها، ثم تناول من بعده، فمن بعده، إلى أن انتهى بآخرهم، وجعل لكل

مـــنهم فصـــلا خاصا به ، معنونا باسمه ولم يطنب المؤلف كثيرا فى اقتفاء أثر الجيش العربى الفاتح لمصر، ولعل سبب ذلك وجود كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم.

ونهـــج المؤلـــف فى تناوله لكل أمير أن يقدم اسمه ، والخليفة الذى عينـــه، واختصاصاته، وتاريخ تعيينه، وتاريخ قدومه مصر، إن كان بين التاريخين فترة، ومن أنابه فى تلك الفترة، وأخيرا صاحب الشرطة الذى عينه، أو أصحاب الشرطـــة إن كانوا أكثر من واحد. يقول :

" ثم وليهـــا عتبة بن أبى سفيان ، من قبل أخيه معاوية، على صلاتها، فقدمها فى ذى القعدة سنة ثلاث وأربعين، وجعل على شرطته زكريا بن جهم "

ويقول : ثم وليها سعيد بن يزيد الأزدى ، على صلاتها، فقدمها لمستهل شهر رمضان سنة اثنتين وستين فأقر عابسا على الشرط.

ودأب فى خـــتام الكـــلام عن كل وال على ذكر تاريخ انتهاء ولايته والمدة التى قضاها فى ولايته. يقول:

" فخرج عتبة إلى الإسكندرية مرابطا فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين، فابتنى دار الإمارة التى فى الحصن القديم. وتوفى بمنية الزّجاج، واستخلف على مصر عقبة ابن عامر الجهنى. فكانت ولايته عليها سنة وشهرا " .

وكـــان المؤلف يملأ ما بين هذه البداية والخاتمة فى كل وال بالكلام عن بعض الأحـــداث الـــتى وقعـــت فى عهده. ويعنى فى هذه الأحداث بالثورات والحروب والفـــتن، وبانتقالات الولاة بين العواصم المصرية: الفسطاط، أو العســـــــكر، أو القطائع، وبين عاصمة الخلافة: المدينة ، أو دمشق أو بغداد، وبين المدن المصرية الأخرى، والإسكندرية خاصة. ويذكر فى كل مرة اسم من استخلف على العاصمة المصرية عند خروج الوالى منها.

وهذا مثال مما قاله المؤلف عن أحد الولاة الذين أوجز الكلام عنهم.

" ثم وليهـــا منصـــور بن يزيد الرّعينى ـــ وهو ابن خال المهدى ـــ من قبل المهدى، على صلاتها. فوليها يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ســـنة اثنـــتين وستين ومئة هجرية، فجعل على الشرطة هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج. ثم صرفه وولىّ عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى. ثم عزله وولى عسّامة بن عمرو المعافرى.

ثم خـــرج منصـــور إلى الإســـكندرية ، واستخلف عليها عسّامة بن عمرو. فحدثنى ابن قديد عن عبيد الله بن سعيد عن أبيه قال: لما ولى عسّامة شرط ابن يزيد ابـــن منصـــور، ذكر ذلك، لابن بحير فقال: خليفة صاحب الشّرط ؟ فقالوا : لا ولكن على الشرط. فاستعظم ذلك. ثم صرف منصور عنها للنصف من ذى القعدة سنة اثنتين وستين ومائة هجرية، كان مقامه عليها شهرين وثلاثة أيام" .

وصفوة القول فى هذا الكتاب إنه أوسع كتاب بين أيدينا اليوم، يعطينا وصفا لأحـــداث مصر فى العهد الإسلامى الأول بها، وإنه الوحيد الذى يعطينا كثيرا جدا من الأخبار المصرية التى لا يعرض لها كتاب تاريخ أخر، ســـــواء ألف فى المشرق أو المغـــرب. فمـــا أكـــثر الأحداث التى ذكرت فيه، ولم يشر إليها أكبر موسوعة تاريخيـــة عربية مطبوعة: كتاب الطبرى، وهو ـــ بالإضافة إلى ذلك ـــ يورد وصفا فيـــه بعض الاتساع للدولة الطولونية. فهو إذن مرجع لا غنىعنه للباحث فى أخبار مصر الإسلامية الأولى.

*****

«القسم المصرى»
من المغرب لابن سعيد

من الأمور المعروفة أن على بن موسى الأندلسى قسم كتاب: «المغرب فى حلى المغرب» ، الذى ألفه بالموارثة عبد الله بن إبراهيم الحجارى، فعبد الملك بن سعيد فابنه أحمد بن عبد الملك ، فأخوه محمد، فابنه موسى بن محمد، ثم على بن موسى فى مئة وخمس عشرة سنة، قسمه إلى ثلاثة أسفار، سمى كل واحد منها فلكا. وسمى أولها «فلك الزهرة» ، وخصصه لمصر، وثانيها «فلك عطارد» ، وخصصه للمغرب أى بقية شمال أفريقيا، وخصص الثالث ــ الذى ضاع اسمه ــ للأندلس.

ومن الأمور المعروفة أنه منح كلا من مصر والأندلس ستة أجزاء من الكتاب، وأنه افتتحه بمصر، واختتمه بالأندلس، أى سار فيه من المشرق إلى المغرب، ولم يعط المغرب غير ثلاثة أجزاء، فاكتمل الكتاب كله فى خمسة عشر جزءا.

ومن الأمور التى يأسف لها كل مشتغل بالتراث المصرى أنه لم يصل إلينا من القسم المصرى إلا ما عالج الفسطاط والقاهرة، وفقدنا ما تناول بقيه القطر المصرى. ولذلك لم يستطع الباحثون أن يتبينوا فى وضوح خطته، وأعربوا عن أسفهم البالغ من أجل ذلك. قال الدكتور: زكى محمد حسن فى مقدمة القسم الخاص بالفسطاط: أما خطة المغرب فى القسم الخاص بمصر فلا تزال غير واضحة. والراجح عندنا أن المؤلفين لم يلتزموا فى هذا القسم الخطة التى سجلها على بن موسى بن سعيد فى مقدمة "المشرق" ... وإذا كان المنهج فى هذا القسم قد

خفيـــت أعلامـــه وعميـــت مسالكه، فإنما يرجع ذلك إلى أن الأوراق التى تضمها المخطوطـــة من هذا القسم لا تكفى لكشف خطة المؤلفين فيه والكتب التى قسموه إليها (ص ٢٨) .

وقـــد عـــثرت فى أثناء اشتغالى بتحقيق القسم الخاص بالقاهرة من الكتاب وبعـــده، على أوراق متناثرة من الكتاب ، وأقوال متفرقه فى بعض المراجع، تعطى معـــلومات جديـــدة وتضىء بعض الجوانب، فأردت أن أسجلها فى هذه الأوراق، خيفة أن تضيع فتضيع معها ماتحمله من معلومات إضافية، ورجاء أن تهدى الباحثين فى المستقبل إلى معلومات أكثر.

واضـــح مـــن عنوان "المغرب" وأخيه "المشرق" اللذين أصدرهما على بن موســـى ومحتواهما، أنهما يقفان على قاعدة جغرافية، أى يتخذان من البيئة الجغرافية أساسا للتناول.

ولا يقـــف الأمر عند هذا بل يتعداه إلى التقسيم الداخلى للكتابين، فيلتزم المغرب الذى أخصه بالدراسة الأساس الجغرافى فى أقسامه الكبرى والصغرى.

ولما كان "المغرب" يعد كثيرا من أقسامه الداخلية كتبا مكتملة، ويعطيها عناوين خاصـــة، فقد أعطى القسم الخاص بمصر عنوان «الإكليل فى حلى بلاد النيل» ، ثم قسمه إلى ثلاثة ممالك :

١ – المملكة العليا ، وأراد بها الصعيـــــــد.

٢ – المملكة الوسطى، وأراد بها منطقة العاصمة.

٣ – المملكة الساحلية، وأراد بها الوجه البحـــرى.

ومـــن الطبيعى أنه أعطى كل واحد من هذه الممالك الثلاث عنوانا خاصا، غـــير أن عـــناوين المملكـــتين العليا والساحلية ضاعا، ووصل إلينا عنوان المملكة

الوسطى فقط، وهو كتاب : «النشوات الخمرية فى حلى المملكة الوسطى من الممالك المصرية» .

وكما فعل فى الأندلس، قسم كل واحد من هذه الممالك قسمين:

يختص الأول منها بالكور (الأقاليم) التى إلى شرق النيل، والثانى بالكور التى إلى غربه. وأعطى ما كتبه عن كل واحدة من هذه الكور عنوانا، غير أننا لم يصل إلينا إلا القليل منها.

وتكشف المعلومات التى عثرنا عليها أن الكتاب سار على الخطة التالية:

اشتملت المملكة العليا على : ـ

١ - " النوبة " ، وجعل فيها "سلكا" ترجم فيه لذى النون الصوفى المعروف، ولابن أخيه ، وجعل "حلة" ترجم فيها للقمان الحكيم.

٢ - "الحبش" وترجم فيها للصحابى بلال بن حمامة مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكافور الشاعر.

٣ - "عيذاب" ، وترجم فيها لولى الدين خطيبها.

٤ - " أسوان " وجعل عنوان كتابها «الأقحوان» ، وترجم فيها للناظر أبى الحسن بن النص وولده على ، وللحسيب أبى المعالى بن عرام، وهبة الله ابن عرام والفقيه القطرسى، والشاعر أبى الحزم المكى، وعلى بن محمد البرقى القوصى (الطالع السعيد ٣٤ ، ٤٠٦) ، وربما جاءت فيها أيضا ترجمة أحمد بن على الرشيد الأسوانى، وعلى بن محمد بن النضر الأسوانى (الطالع ١٠١، ٤١٣) .

٥ - " قنا " : وترجم فيها للزاهد بن الصباغ .

٦ - " دشنا " : وترجم فيها للشاعر الدشناوى.

٧ - " إخميم " : وترجم فيها للشاعر ابن أبى شمر ، والنصير.

٨ - " دجرجـــا " : (جرجا الآن) : وترجم فيها الشاعر ابن المشرف.

٩ - " أدفـــــو " : وجعل عنوان كتابها «معاشرة من يصفو فى حلى أدفو» ، وتـــرجم فيها للشاعر غشتمر بن عز العرب بن عبد الواحد المعروف بابن الأرجوانى (الطالع ٤٦٣) .

١٠- " إســـــنا" : وجعل عنوان كتابها «الحظ الأسنى فى حلى مدينة إسنا» ، وترجم فيها للشريف محمد بن على بن الغمر الهاشمى، وأبى الغمر، والناظر ابن شيث، وعلى بن عمر الهاشمى القوصى (الطالع ٣٩٢، ٥٦٧)، وللعالم ابن الحاجب فى حلتها .

١١- " أرمنت " : وترجم فيها للشريف الأرمنتى .

١٢- " أسيوط " : وترجم فيها للصاحب ابن مطروح وللشاعر عبد الحميد.

ولم أجـــد لقـــوص ذكـــرا فيما عثرت عليه من أوراق. ولما كانت من أكبر المراكـــز الثقافية فى مصر فى ذلك العهد، فإنى أعتقد أنه ـــ لا محالة ـــ خصص لها كتابا، ولعله ترجم فيه لعبد الرحمن بن عبد الوهاب القوصى، ونصر الله بن هبة الله ابن بصاقة القوصى، اللذين ذكر الأدفوى أن ابن سعيد ترجم لهما (الطالع ٢٨٨، ٦٧٨) دون أن يحـــدد موضع الترجمة، وإنما أرجح استدلالا من نسبتهما، وإن لم تكن قاطعة. فقد ترجم لعلى بن عمر الهاشمى القوصى فى إسنا .

كذلـــك ربمـــا تـــرجم للوزير على بن يوسف جمال الدين القفطى فى قفط (الطالع ٤٣٧). واشتملت المملكة الوسطى التى سمى كتابها «النشوات الخمرية»، على ستة أسفار ينقسم كل واحد منها إلى الكور المشرقية والكور المغربية. وليس لدينا إلا اسم كتاب الكور المشرقية من آخر هذه الأســـــــــفار، وعنوانه: «لـــذة اللمس فى حلى كورة عين شمس» . وينقسم هذا الكتاب إلى خمسة كتب على النحو التالى :

١ – منية النفس فى حلى مدينة عين شمس.

٢ – الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط: طبع ما بقى منه الأساتذة د.زكى محمد حسن ، ود. شوقى ضيف ، ود.سيدة إسماعيل الكاشف فى مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥٣ م.

٣ – النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة . وطبعت ما بقى منه فى مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠م .

٤ – رشف القبل فى حلى قلعة الجبل: ترجم فى تاجها للسلطان الكامل وابنه العادل .

٥ – النفحة الحاجرية فى حلى الجزيرة الصالحية : ترجم فى تاجها للسلطان الصالح واشتمل هذا القسم على البلاد التالية:

أ – قليوب : وترجم فيها للكاتب على بن محمد، والشاعر حزملة الأدب.

ب – بلبيس : وترجم فيها للشاعرين أحمد بن كسا وطراد السلمى.

ج – أنصنا : وترجم فيها للشاعر يوسف بن أبى الدبس .

واشتملت المملكة الساحلية على مايلى :

١ – دمياط : وترجم فيها للوزير على بن أبى المنصور، والكاتب ابن قادوس، والعامل الأعيور، والشاعرين ابن شغب، ومحمد بن منصور.

٢ – تنيس : وترجم فيها للأديب ابن وكيع، والشاعرين هبة الله وابن مكدن.

٣ – سمنود : وترجم فيها لهبة الله .

٤ – المحلة : وترجم فيها للكمال ابن النبيه وابنه، وللكاتبين الصفى الأسود والرضى بن فارس، وللأديب الشرف بن قديم، والشاعر المعيدى، والحسيب الشاعر ابن مقدام، والشاعر العماد.

٥ - سبـــك : وترجم فيها للشاعر السبكى .

٦ - ســـــخا : وتـــرجم فيها للنحوى العالم السخاوى، وللأديب ابن جبارة، وللشاعر موسى بن على .

٧ - أبيـــــار : وترجم فيها للشاعر الكمال .

٨ - فـــــوة : وترجم فيها للفقيـــــــه .

وتكشـــف هـــذه الصورة ــ على الرغم من عدم اكتمالها ــ عن الأساس الجغـــرافى الدقيـــق الذى تبناه مؤلفو « المغرب» . فإذا أضفنا إليها الصورة التى خرجنا بها من دراســـــــة القسم الأندلسى من الكتاب، تبين فى جلاء أن كتاب « المغـرب» بلغ الذروة فى المنهج الاقليمى لدراسة الأدباء العرب.

فقد وجدت ظواهر تدل على تنبه الفكر العربى إلى ما تخلفه البقاع المختلفة من آثار متباينة على اللغة منذ العصر الجاهلى، وعلى الشخصية والذوق منذ عهد الرســـول صلى الله عليه وسلم، وعلى الأدب منذ القرن الهجرى الأول (السابع الميـــلادى) . واشترك فى هذا التنبه الشعراء والنقاد. ثم انتقل هذا التنبه إلى حقل التاريخ الأدبى. فاتخذ منه محمد بن سلام الجمحى (٧٦٧ م ــ ٨٤٦م) واحدا من الأسس التى قسم عليها كتابه طبقات فحول الشعراء. فجمع شعراء القرى العربية معـــا، ثم أفـــرد الطبقة السادسة من طبقات الشعراء الإسلاميين لأربعة من شعراء الحجاز.

ولكـــن عبد الملك بن محمد الثعالبى (٩٦١ م ــ ١٠٣٧م) هو رائد اتخاذ الأقالـــيم أساســـا للـــتاريخ الأدبى عند العرب. فقد رأى العالم الإسلامى يستظل بحكومـــات متبايـــنة بل متخاصمة، والشعراء الكبار يبرزون من الأقاليم المتباعدة، وإيـــران تشرع فى إصدار أدب فى لغة غير عربية، فتجلت الفروق بين الأقاليم فى

جـــــــــلاء لا يمكن تجاهله. فاتخذ من الموطن الجغرافى أساسا لتقسيم كتابه « يتيمة الدهر» ، فرتب الأدباء الذين ترجم لهم فى أربعة أقسام:

١ – أدباء آل حمدان والموصل والمنطقة من مصر إلى المغرب.

٢ – العـــــــــــراق.

٣ – فـــــــارس .

٤ – خراسان وماوراء النهـــــر.

وطـــبيعى أن يتســـرب إلى هـــذا الأســـاس البادئ شيء كثير من الخطأ والاضـــطراب والسذاجة. ولكنه صار الأساس لكتب متعاقبة فى القرون المتوالية تبنته، ورمت إلى ترجمة أدباء عصورها مع تغييرات طفيفة، لا يخطئ الإنسان كثيرا إذا ما تجاهلها خاصة فى النظرة العامة .

وأول تغيـــير واضـــح فى المنهج نجده عند على بن بسام الشنترينى (المتوفى ١١٤٧م) فى كتابه : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ، فقد قصره المؤلف على الأندلس ، فاستطاع أن يبنيه على أساس جغرافى سليم ودقيق، كما يلى :

١ – وسط الأندلـــــــــس .

٢ – غرب الأندلـــــــــس.

٣ – شرق الأندلـــــــــس.

٤ – الطارئون على الأندلس.

وعلى الرغم من تأثر مؤلفى « المغرب» بمنهج الذخيرة، فالبون بعيد بينهم وبينه. فقد تناولوا بالدرس العالم الإسلامى كله، وإن كانوا فعلوا ذلك فى كتابين لا كـــتاب واحـــد، خصصـــوا الأول منه لغرب ذلك العالم، بدءا من مصر، وانتهاء

بالأندلس وسموه « المغرب» وخصصوا الثانى للأقطار التى إلى شرق مصر وسموه « المشرق » [1].

ثم قسموا كل كتاب تبعا للأقطار التى يحتوى عليها، وقسموا كل قطر إلى أقاليمه ومراكزه وبلدانه. فوصل المنهج البيئى فى التاريخ الأدبى إلى ذروته.

وإذا وضعنا إلى جوار الذخيرة والمغرب كتاب : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، الذى ألفه المقرى (القرن السابع عشر) ، تبينا فضل الأندلس على ذلك المنهج فى جلاء. فلأول مرة ــ فيما أعلم ــ يريد مؤلف عربى أن يترجم لأحد الأدباء، فيفعل ذلك، ويقرن الترجمة بدراسة واسعة للبيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية والأدبية التى عاش فيها، وإن كان قد أسرف فى هذه الدراسة كثيرا، فأفسد المنهج، غير أنه أفاد كل باحث عن وجوه النشاط فى الأندلس.

وقبل أن أختم هذا الكلام أود أن أضيف إلى المصادر التى أعلن أ.د /زكى محمد حسن أن مؤلفى « المغرب» استقوا منها، المصادر التالية التى أفاد منها فى « النجوم الزاهرة » :

١ – بدائع البدائه لعلى بن ظافر ٣٢٦ .

٢ – التعريف والاعلام للسهيلى ٣٨٨ .

٣ – حديث يوسف (الصديق) ٣٧٨ .

٤ – الدر المنظوم ٢١٨ .

٥ – ديوان ابن الذروى ٣٣٤ ــ ٣٤٥ .

٦ – ذيل تاريخ دمشق للبرزالى ٣٤٩ .

---

[1] الراجح أن الذى ألف المشرق هو على بن موسى وحده بإشارة (أو بمشاركة ما) من أبيه .

٧ – ذيل خريدة القصر للعماد الأصفهانى ٢١٢، ٢٤٠، ٢٥٩ .. إلخ.

٨ – ذيل قضاة مصر لابن زولاق ٣٦٦ .

٩ – رسائل ابن خيـــــران ٢٤٧ .

١٠– رسائل ابن الصيرفى ٢٥٢ .

١١– الرسالة المصرية لأبى الصلت الأندلسى ٣٣٠ .

١٢– زينة الدهر للحظيرى ٣٢٦ .

١٣– قصص الأنبياء للكسائى ٣٧٧ ، ٣٧٩ .

١٤– المعارف لابن قتيبـــــة ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

١٥– ملح الملح لابن الصيرفى ٢٥٣ .

المراجـــــع

١ – ابن سعيد « المغرب فى حلى المغرب » مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م.

٢ – ابـــن سعيد « النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة » مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م .

٣ – جعفـــر بن ثعلب الأدفوى « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .

******